تاريخ السودان

في العصور القديمة

تأليف

دكتور حسن سليمان محمود
جمال الجاويش

مطابع الزمان

١٩٥٨

تمت اعادة رفع وتحميل الكتاب

في ٢٠ شعبان ١٤٤٦هـ

جدة - المملكة العربية السعودية

د.ابراهيم بن حسن الطويل ال ابراهيم العباسي





تاريخ السودان

في العصور القديمة

تأليف

دكتور حسن سليمان محمود

جلال الجاويش

مطابع الزمان

تاريخ السودان

في العصور القديمة

Mahmud

تأليف

دكتور حسن سليمان محمود   جلال الجاويش

مطابع الزمان

الطابعون مطبعة الزمان ــ الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما قمنا بتأليف كتاب « تاريخ السودان من أقدم العصور الى الآن» فى العام الماضى ، وضح لنا جليا أن المكتبة العربية السودانية تفتقر الى كتاب يوضح بسهولة ويسر « تاريخ السودان فى العصور القديمة » . ولم يمض زمن طويل حتى تعرفنا على السيد الأستاذ مندور المهدى كبير مفتشى التاريخ بوزارة المعارف السودانية ، وتطرق الحديث فيما بيننا الى فكرة تأليف كتاب عن هذه الحقبة فى تاريخ السودان . وقد وجدنا منه تشجيعا بالغا ، فقوى عزمنا على القيام بهذا المجهود العلمى خدمة لطلاب العلم المهتمين بدراسة تاريخ السودان عامة ، وبدراسة هذه الحقبه منه بصفة خاصة وحرصنا على أن يكون الكتاب ليس مطولا مملا ولا مختصرا مخلا، بل جعلنا هدفنا الأول هو السهولة فى الأسلوب والوضوح فى المعنى، مع اتخاذ جانب التبسيط وعدم الاسترسال فى التفاصيل التى تبعدنا عن الهدف المنشود ،

كما حرصنا على تزويد الكتاب بعدة لوحات وخرائط لتساعد القارىء على تتبع المعلومات التى وردت فيه . فان كنا قد وفقنا فهذا من فضل الله وتوفيقه ، وان كان فيه شيء من القصور فمرده الينا والعصمة لله ، وليكن هذا التقصير حافزا لغيرنا على الاجادة والعمل فى هذا الحقل حتى نكون قد أدينا للسودان الحبيب خدمة علمية جليلة .

واننا ننتهز هذه الفرصة فنقدم جزيل شكرنا للسيد الأستاذ مندور المهدى الذى تفضل مشكورا بمساعدتنا بتوجيهاته ونصائحه حتى ظهر الكتاب بالصورة التى ترونها بين أيديكم .

والله ولى التوفيق　　　　　　　　　　المؤلفان

الفصل الأول

السودان فى عصور ما قبل التاريخ

أقدم انسان عرف فى السودان :

لما كان الانسان هو اصل الحضارة ومنشئها ، ولما كان السودان محور دراستنا وجب علينا أن نعرف شيئا عن أصل الانسان فيه . واذا صح القول بأن الانسان قد انحدر من القردة ، التى تقطن اقليم البحيرات فى أواسط افريقية ، فانه من المحتمل أن يكون الانسان الأول فى السودان قد عاش مدة ربما كانت أطول من أى مدة عاشها فى أى بقعة من بقاع العالم . ولكننا لا نعلم بعد ان كان الانسان الأول ، الذى عاش فى السودان ينتمى الى الانسان الحديث أم لا . ولكنا نعلم علم اليقين أنه حين كان النيل يجرى عند وادى حلفا فى مستوى يعلو بنحو مئة وخمسين قدما عن مستواه الحالى ، كان الانسان يستعمل آلاته المتخذة من الحصاة برعاية ، ومن المحتمل أن يكون الانسان قد عاش على الأرض حوالى نصف مليون سنة ليعرف كيف يصنع من هذه الآلات البدائية . آلات متقنة الصنع كالفؤوس اليدوية ، التى وجدت بالقرب من أمدرمان .

وانسان سنجة يعتبر الى الآن أقدم انسان عرف فى السودان ، وقصته أنه فى عام ١٩٢٤ بينما كان مفتش مركز سنجة يتجول على النيل الأزرق ، المتمد أمام منزله رأى دهمة غريبة تشبه جمجمة حيوان ، فاقترب المفتش منها وأخذها بين يديه يتفرسها انها تشبه جمجمة الانسان ، ولكن جبهتها ضيقة ومائلة الى الوراء ، وفكاها بارزان ، وعيناها ضيقتان محجورتان .

دهش المفتش لما رأى ، وأخذ الجمجمة الى بيته وهنا قضى زمنا طويلا يفحص ويقارن بينها وبينما قرأ وما أخذ يقرأ فى كتب التاريخ ، لعله يكون قد عثر على كشف أثرى يضعه فى منزلة المكتشفين من علماء الآثار فى شتى أقطار العالم . فعلماء الآثار مازالت تشغلهم قصة الانسان الأول ، فهم كانوا ومازالوا يرتادون شتى بقاع الأرض يحفرونها وينبشون أعماق الكهوف وقيعان البحيرات يبحثون عن أدوات الانســان الأول وأكوام عظامه ، والصور التى خلفها على جدران الكهوف . انهم يريدون أن يعرفوا عمر الانسان على الأرض ، متى خلق ، وكيف عاش ، وكيف تطور ؟

علماء الآثار يفحصون الجمجمة :

بعث مفتش مركز سنجة الى علماء الآثار فى الخرطوم ، وبعد أن فحصها هؤلاء أرسلوها بدورهم الى بعض علماء الآثار فى العالم .

وقد استطاع العلماء معرفة بعض المعلومات النافعة عن جمجمة انسان سنجة . فتبين لهم أن صاحب هذه الجمجمة يرجع تاريخه الى حوالى ٢٥٠ الف سنة قبل الميلاد ، وأنه يشبه الى حد ما أشكال أفراد قبيلة البوشمن Bushmen أو البشامنه ، التى تعيش فى جنوب غرب افريقية ، فى صحراء كلهارى ، وأن نوع انسان سنجة كان فى وقت ما منتشرا فى كثير من جهات افريقية . وتبين للعلماء كذلك أن بعض الآلات والأدوات من الشظايا الحجرية ، التى عثر عليها المفتش فى موضع الجمجمة على عمق ٢٨ قدما تحت سطح الأرض ، والتى كان يستعملها انسان سنجة ، تبين بوضوح الصلة فى عمل الأدوات بينه وبين انسان نياندرتال ، الذى كان أكثر أجناس الانسان القديم انتشارا فى أوربا ، والذى عاش فى نفس عصر انسان سنجة .

هذا جزء من قصة انسان من أوائل الناس الذين عاشوا فى السودان ،

ولا نستطيع أن نقطع بأنه انسان السودان الأول . وربما عثر العلماء فى السودان على انسان اقدم من انسان سنجة ، وقد تكون انت أحدأولئك العلماء ، فكن دقيق الملاحظة فى كل ما حولك .

الانسان الأول فى غير السودان :

ليس انسان سنجة أول انسان عرف على وجه البسيطة ، فقد دلت الحفريات على ان أقدم انسان عرف فى العالم — الى الآن — وجد فى جزيرة جاوة سنة ١٨٩١ ، ولكن انسان جاوة لم يكن انسانا بالمعنى الذى نعرفه الآن ، بل كان أقرب الى القرد منه الى الانسان ، حتى ان العلماء أطلقوا عليه « الانسان القرد المعتدل القامة » . وكان حجم مخ هذا الانسان كما قرر العلماء بين مخ القرد ، ومخ الانسان ، وكانت جمجمته كثيفة وثقيلة ، وكانت الجبهة منخفضة ، وعظام الحاجبين بارزة الى الامام ، وكذلك عظام الوجنتين وكان طوله حوالى خمسة اقدام وست بوصات ، ولكن ذراعيه كانتا طويلتين بالنسبة للجسم .

وتلا ذلك كشوف أخرى فى جهات متعددة منها : انسان الصين ، الذى كشف عنه سنة ١٩٢٧ على بعد ٤٢ ك م من بكين ، وكان هناك اختلاف بين انسان جاوة ، وانسان الصين . وقد حدث خلاف كبير بين العلماء فى صلة كل منهما بالانسان الحديث ، الذى نعرفه الآن . ولعل أفضل الآراء أن نقول : ان حفريات الشرق الأقصى عبارة عن مثلين لانسان واحد فى حالة بدائية . ولكنهما لا يبعدان كثيرا عن الخط الذى انحدر منه الانسان الحديث ، وأن بينهما قرابة تبعث على الاعتقاد بوجود جد مشترك لهما .

ولا يعنى وجود أقدم الحفريات فى جاوة وبكين أن وجود الانسان البدائى ، كان قاصرا على شرق آسيا ، وأن الانسان تطور فى هذا الاقليم ،

وانما رجع ذلك الى الصدفة ، ذلك لأنه وجد بالفعل سنة ١٩٣٥ ،الانسان الافريقى ، أو نسان «نيارا» نسبة الى بحيرة «نيازا» بشرق افريقية . وقد وجدت أجزاء من جمجمة على شكل حفرية سميكة ، ولوحظ أن بها شبها من جماجم بكين ، مع بعض الفروق كصغر الجبهة مثلا .

السودان فى عصر انسان سنجة :

ان تاريخ البشرية فى أى قطر يعتمدعلى أحواله الجغرافية ،التى تعتمد بدورها على جيولوجية الاقليم ، وتعتمد كذلك على الظروف المناخية ، التى تكون أسرع تغييرا من الأحوال الجيولوجية فبينما نجد الاحوال الجيولوجية تفسر لنا السر فى وجود تلك التعرجات الغريبة فى مجرى النيل وفى صلاحية بعض أجزاء ذلك المجرى للملاحة ، وفى كثرة الجنادل الصخرية فى البعض الآخر نجد ان الأحوال المناخية تعرفنا أن مناخ السودان الآن لم يكن كما كان عليه فى عهد نسان سنجة . فوجود التلال الرملية فى كردفان تدل على أنها كانت فى الماضى أكثر جفافا مما هى عليه الآن ، ذلك لأن الأمطار التى تسقط عليها اليوم قد عملت على تثبيت تلك الكثبان الرملية بواسطة الأعشاب التى تغذيها . وقد لا تختلف ظروف كردفان فى الماضى ، عن الظروف السائدة فى دنقلة اليوم ، حيث ان هذه الظروف تساعد على بقاء التلال الرملية وتزيدها .

كذلك تدل الآلات الحجرية ، وبقايا الآنية الفخارية ، التى خلفها الانسان فى الصحراء ، على أن هذه الجهات لم تكن دائما مجدبة ، بل كانت ذات أمطار ومستنقعات وغابات تعيش فيها الحيوانات ، كوحيد القرن وفرس البحر . والأفيال ، مثل التى نجدها الآن فى أقصى الجنوب .

كما تدل المدرجات النهرية الممتدة على جانبى النيل ، وأن النهر كان أكثر

وادى المتعب

إلى الشمال دراو

وادى الملك

إلى دراو

وادى العرم

إلى الكرنان

شكل (١)

الوديان

اتساعا وأغزر ماء ، ذلك لأنه من السهل ان يشاهد الرواسب الحصوية التى خلفها النهر على ارتفاع مئة وخمسين قدما فوق سطح النهر الحالى، وعلى بعد عدة أميال من شاطىء النهر فمثلا ملاعب الكرة التابعة لمدرسة واد سيدنا الثانوية كانت تقع فى قاع النهر ، كذلك بالقرب من العطبرة تستطيع أن ترى الآن آثار الغرين ، التى رسبها النهر فى تلك الأزمنة السحيقة ، عندما كان يغمر تلك الجهات .

وربما كانت الوديان كوادى الملك والقعب والمقدم ، أنهارا تصب فى النيل كما كان خور بركة يمتد الى البحر الأحمر ، وخور القاش يصب فى العطبرة (شكل ١)

من ذلك نرى أن هذه الظروف المناخية الحالية لم تكن هى السائدة فى الماضى بل وجدت فى الزمن الجيولوجى الرابع أو عصر البليستوسين أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم فى الوقت الحاضر . فكان معظم أوروبا مكسوا بالجليد ، على حين كانت الاقاليم الصحراوية فى شمال افريقية وجنوب غرب آسيا ذات مناخ يشبه مناخ البحر المتوسط الحالى . ويعرف هذا العصر بالعصر الجليدى فى أوربا ، والعصر المطير فى المناطق الصحراوية الجافة . وكانت هذه الاقاليم الصحراوية فى العصر المطير ذات ثروة نباتية من الحشائش والأشجار ، كما كانت ذات ثروة حيوانية غنية .

الحياة البدائية لانسان سنجة :

لم تكن فى سودان هذا العهد صحارى كالتى نشاهدها اليوم فى النوبة والعطمور ، فقد كانت هذه الصحارى تغطى بالغابات نظرا لغزارة الأمطار وبالتالى كانت حياة الناس فى هذا العصر أرقى وأسهل من حياة العرب فى شمال السودان اليوم ، وذلك لوفرة الماء والنبات والحيوان .

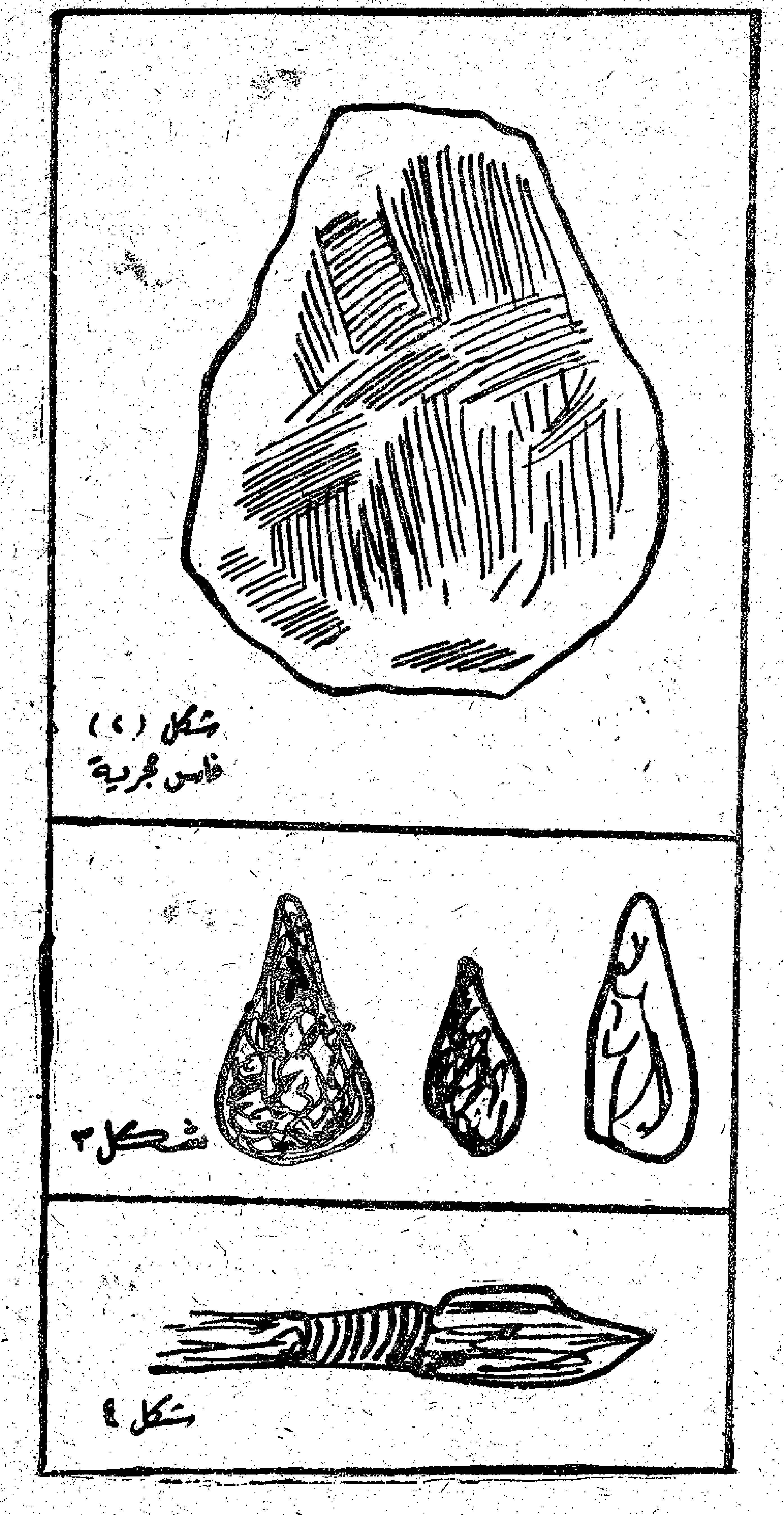
كانت حياتهم بدائية ، ولم تكن لهم المقدرة على استغلال ما حبتهم به الطبيعة من خير وفير ، فلم يستفيدوا من الأراضي الخصبة والمياه الكثيرة لأنهم لم يكونوا قد عرفوا الزراعة بعد ، كذلك لم تكن لهم القدرة على استئناس وتأليف الحيوانات المتوحشة للاستفادة من ألبانها ولحومها وركوبها كطريقة للمواصلات وما الى ذلك من الأشياء الكثيرة التى يستفيدها الانسان اليوم من الحيوانات المختلفة .

ولاشك ان انسان السودان فى هذا العهد ، كانت آلاته التى استعملها قليلة جدا وبدائية فى صنعها ، وربما صنع آلات من الخشب والعظم ، ولم تصل الينا هذه الآلات بسبب تقادم العهد عليها . ولكن من حسن الحظ أن هذا الانسان القديم صنع آلات من الحجارة أيضا فوصلتنا ، ودلت بذلك على درجة حضارته .

استخدم هذه الآلات الحجرية البسيطة فى حفر الأرض وقطع الأخشاب وصيد الحيوانات ، ذلك لأن حياتهم كانت تتركز على صيد الحيوانات . وكانوا يرحلون من مكان الى آخر فى طلبها فكانوا يقتلون الحيوانات الصغيرة برميها بالحجارة ثم يمزقونها بأيديهم وبأسنانهم ويأكلونها نيئة . وربما قتل أحدهم الآخر وأكل مخه ، بعد كسر الجمجمة بالحجر ، على حين غفلة منه وذلك عندما لا يوفق فى صيده .

أطوار حضارة الانسان فى عصر ما قبل التاريخ :

فى الوقت الذى كان الانسان فى السودان يعيش بهذه الطريقة ، كان الانسان فى جهات أخرى من العالم (افريقية وآسيا وأوربا) يعيش بنفس الطريقة ، ذلك لأن الأدوات الحجرية التى كشفت فى تلك الجهات وجدت فى حالة تشبه تلك التى كان يستعملها انسان سنجة ، ولقد اصطلح العلماء على تسمية هذه الفترة بالعصر الحجرى القديم .


شكل (٢)
فاس حجرية
شكل ٣
شكل ٤

العصر الحجرى القديم :

وقد قسم المؤرخون هذا العصر الى ثلاثة أقسام هى :
(١) عصر حجرى قديم أسفل ، وكانت الآلات السائدة فيه هى التى تسمى بالفؤوس الحجرية ،وهى آلات مصنوعة من قلب كتلة الصخر بمعنى أن كتلة الصخر كلها تحول الى واحدة ويبين ذلك (شكل ٢) ،وانك اذا ذهبت الى مصلحة الآثار السودانية أمكنك أن تشاهد بعض هذه الفؤوس التى وجدت بجهة عطبرة .
(ب) عصر حجرى قديم أوسط . وفيه كانت تصنع الآلات من شظايا الصوان أى أن كتلة الصخر كانت تقصص الى عدة آلات كالمكاشط والسكاكين مثل التى وجدت فى خور أبى عنجة (قرب أم درمان) ويبين ذلك (شكل ٣) .
(حـ) عصر حجرى قديم أعلى ، وهو الذى تعلم فيه الانسان صنع أدوات حجرية أحسن وأدق من السابقة ، فكان لسكاكينهم نصال طويلة رفيعة ، وحدود مرهفة ، وصنعوا كذلك محافر استخدمها فنانوهم فى نحت تماثيل الانسان والحيوان فى الحجر . ومن الممكن مشاهدة هذه النماذج فى مصلحة الأثار السودانية حيث وجدت أدوات حجرية صغيرة فى سكة المحيلة (ما بين كريمة ودنقلا) ، وهذا النوع هو أحدث الأدوات الحجرية التى وجدت فى السودان (شكل ٤) .

وقبل مئة سنة تقريبا ، كان الهنود الحمر يصنعون مثل هذه الآلات الحجرية ، والى يومنا هذا نجد البوشمن Bushmen ، وسكان استراليا الأصليين يستعملون مثل هذه الآلات .
ونظرا لأن الجو كان معتدلا فى السنوات الأول من العصرى الحجرى

القديم لم يحس الانسان بحاجة شديدة الى الملبس أو المأوى ، ومن المحتمل أنه كان يعيش معظم أيامه فى العراء قرب مجارى الأنهار ، فقد كانت الضرورة تلجئة الى ذلك ، لأنه لم تكن لديه أو ان يحمل فيها الماء ، فلما اشتد البرد فى الشطر الأخير من هذا العصر ، التجأ الناس فى الشتاء الى مداخل الكهوف المفتوحة ، وكانوا فى بعض الأحيان يقيمون فى الصيف أكواخا من الشجيرات ، وشرعوا فى الوقت نفسه يتخذون لباسا من جلد الحيوان .

النار : وعلى الرغم من أن انسان هذا العصر عرف النار ، الا أنه لم يعرف كيف يستعملها . ولا نعرف كيف ومتى اكتشف الانسان النار ، ولعل البرق نزل بشجرة فأشعل النار فيها . أو أن شرارة انبعثت من احتكاك عصاة بأخرى . ومن المحتمل فيما يظهر أن الناس لم يعرفوا فى أول الأمر كيف يبعثون نارا لم تكن لها وجود . فاذا كان هذا الفرض صحيحا فانهم فيما يظن قد عنوا عناية كبيرة بالابقاء على الشعلة التى كانت لديهم . ولا شك ان اليوم الذى اكتشف فيه الرجل أو المرأة أن النار يمكن استخدامها كلما دعت الحاجة اليها . كان يوما عظيما .

ولقد كانت النار خادما نافعا للانسان ، فهى تطهو الطعام ، وترد الحيوانات المفترسة مرتاعة ، وتحرق الفضلات ، وتجوف جزوع الأشجار اللازمة لصنع المراكب . وتجعل جو الكهف دافئا مقبولا وخاصة فى الشتاء ولما عرف الانسان كيف يصنع الفخار ، أحرقه بالنار فازداد صلابة .
وان الحياة — الآن — لتخلو من البهجة والتحضر ، لولا وجود النار . فالخبز والفخار والآلات المعدنية وقاطرات السكك الحديدية والبواخر والعربات .. الخ كلها نتيجة لتحكم الانسان فى استخدام النار .

نشأة اللغة : وفى نهاية العصر الحجرى القديم نشأت اللغة ، ولا ريب فى أن الناس قد توصلوا بالاشارات للافصاح عما يريدون . فاذا رفع أحدهم يده الى فمه كان معنى ذلك أنه جائع ، واذا رفع قبضته فى الهواء ، كان ذلك منبئا عن الغضب ، أما اذا ألقى بنفسه على الأرض أمام آخر ، فان هذا يدل على انه قبل أن يتخذ منه سيدا أو حاكما .

ويحتمل أن تكون النار قد لعبت دورا فى نشأة اللغة ، فالانسان القديم تعود أن يعقد مجتمعا للاصطلاء ، وتنيجة لذلك خف شعره أو زال . وربما كان فضل المرأة فى نشأة اللغة اكبر من فضل الرجل ، ذلك لأن النساء كنا يجتمعن حول النار فى الليل ، فى وقت انشغال ازواجهن بالصيد ، وكنا يتفاهمن بالكلمات ، لأن الاشارات لم تكن ترى فى الظلام فيأخذن فى الحديث ، وفى سك الكلمات الجديدة التى تعبر عن المعانى والتى تخطر فى أذهانهم ، ولاشك فى أن محاكاة الصوت المسموع كان أصلا فى اختراع الألفاظ ، وكان الانسان الاول يعتمد عليه كثيرا فى التعبير عن أفكاره . وهكذا نشأت اللغة عندما أصبح لجماعة من الجماعات ، أو لقبيلة من القبائل مجموعة من الأصوات أو الكلمات يفهمها جميع افرادها .

وكان استعمال اللغة دليلا على تقدم الانسان خطوة كبيرة الى الأمام ، فقد استطاع الناس التحدث فى شئون الحياة التى تعرض كل يوم . وأصبح أفراد القبيلة الذين كانوا يتكلمون لغة واحدة أصح عزما على العمل أو الصيد أو القتال معا . وأخذ الآباء يروون للابناء ما تبينوه من حقائق ، وما شاهدوه من فعال تنبىء بالشجاعة والجرأة . ثم نقل هؤلاء الأبناء ما سمعوا الى أبنائهم . وهكذا نشأ من ذلك مجموعة من المعارف تخص القبيلة

المعتقدات : ومن المدهش حقا أن نجد فى مخلفات هذا العصر أشياء ذات قيمة روحية ، وهى الرسومات الجميلة التى عثر عليها فى بعض الكهوف ، وهى

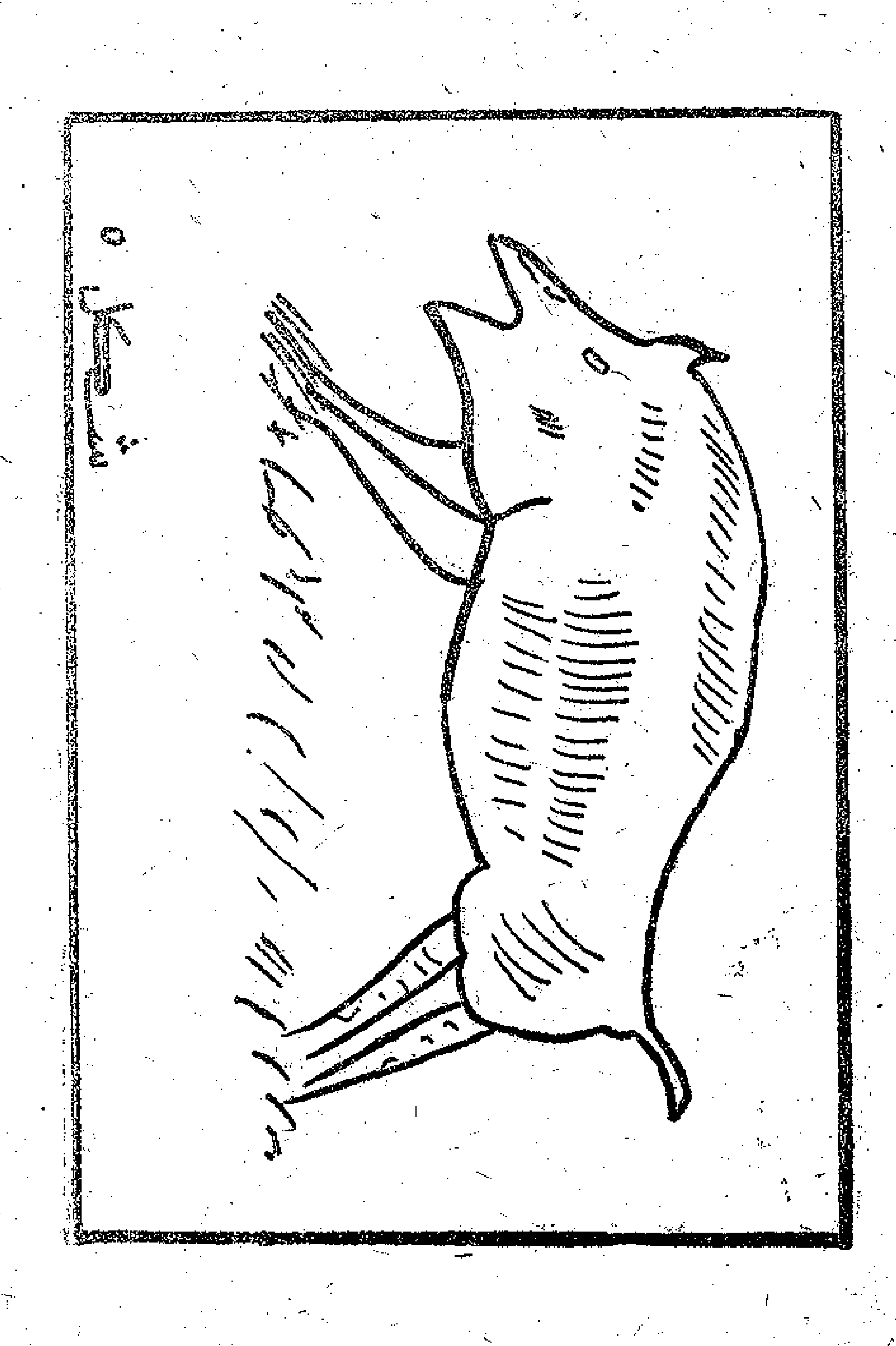
رسومات لحيوانات متوحشة كبيرة كالحلوف (الخنزير) البرى (شكل ٥) والبايسن (جاموس) • أو لمناظر صيد ، ولنذكر دائما ان الحيوان كان يلعب دورا هاما فى حياة الانسان الأول •

فربما يكون قد رسم هذه الصور للتمتع بالنظر اليها ، ويعتبر هذا نوعا من الفنون ، أو لأنه يخشاها ، فعندما يرسمها تصبح له قوة التغلب عليها ، وهذا نوع من السحر ، أو رسمها تقربا اليها ، وهذا نوع من العبادة •

ونجد فى عالمنا الحالى أمثلة تبرهن على مبلغ احترام الانسان لبعض الحيوانات ، فالزنوج فى جنوب السودان يعبدون البقر ، ويقدسونه ، فقبائل الدينكا يتخذون البقر رمزا الى القوة والغنى ، ويعدونها أقدس المخلوقات ، فيفضلونها على نسائهم واولادهم ، والبارى يتعبدون للحية ، ويقدمون لها القرابين من لبن وأطعمة ويعدون قتلها جريمة •

حياة الانسان فى أواخر العصر الحجرى القديم :

وقبل أن نختم هذا الموضوع ، فهل لك أن ترد الساعة الزمنية الى السنين الأخيرة من العصر الحجرى القديم ؟ انك اذا فعلت لوجدت جنسا من الرجال والنساء طويل القامة ، متين البنيان ، يعيش فى الكهوف القائمة على طول بعض الأنهار ، يصطاد السمك • فهو اذن ليس فى حاجة لكى يرتحل وراء الحيوانات ، بعد ان توفر له الغذاء على شواطىء الانهار ، والبحيرات العذبة التى اضطر أن يلجأ اليها ويستقر بجانبها ، بعد ما تغيرت الظروف المناخية ، ووجد الدفء والجفاف • وأصبحت الحياة مستحيلة فى الجهات الجبلية والصحراوية الخالية ، وكان انحدار الناس منها الى الموارد المائية الدائمة • المحدودة المساحة ، بالنسبة للمساحات الهائلة ، التى كان ينتشر فيها سابقا ، والاستقرار بجوار تلك الموارد ، الأساس الأول ، والسبب المباشر لقيام



الحضارة بوادى النيل خاصة والشرق الأدنى عامة •

واذا تصورت أنك تعيش بين هؤلاء القوم من سكان الكهوف،لازداد فهمك لحياتهم ، فما يطلع الصبح على الوادى ،حتى يهب سكان الكهوف من رقادهم ، فينهضون ليوم حافل بالعمل ، ويستعدون للخروج من مأواهم طلبا لصيد عظيم فيجهزون سلاحهم ، كما يعد الأولاد الذين يتخلفون سلاحهم أيضا ،ذلك أن العمل يقتضيهم فى غيبة الرجال ،أن يطلبوا الحيوانات الصغيرة ، التى تدب حول مسكنهم ، ويصيدون السمك، الذى يسبح فى الغدير بالحراب ، ليعولوا النساء والأطفال والرجال المتقدمين فى السن•

وقد حق على صياد شاب منهم أن ينهض اليوم بعمل أكبر من عمل غيره • وهو قد خرج من كهفه مع مشرق الشمس على الوادى، وقصد كهفا آخر حيث تنتظره امرأة شابة ، ذلك أنه يختار فى هذا اليوم رفيقة حياته ،فاذا خرج فى غده ترك نارا مشبوبة أمام كهفه، وامرأة تنتظر عودته، وهو يأخذ يد الفتاة ،ويسير بها الى شيخ طاعن فى السن — هو زعيم القبيلة — حيث اذا مثل بين يديه ، وضع الشيخ ذراع الفتى على كتفها ،فتنحنى للفتى اظهارا لعزمها على أن تكون زوجة ، واشعارا بأنها ستحسن خدمته• ثم يذهب الرفيقان الشابان معا الى كهف خال غير بعيد ، أسفل الوادى، فتبادر المرأة الى جمع العشب والحطب ،ويخر الصياد على ركبتيه ممسكا بينهما قطعة من الخشب اللين ، ثم يحكها بعصاة من الخشب الصلب ، فتتكون على هذه القطعة ذرات ،وتطير شرارة يدنى الصياد الشاب العشب الجاف منها فى لمح البصر فتهب شعلة تكون المرأة حولها المزيد من العشب والحطب ، وهكذا تشتعل أول نار فى موقد المأوى الجديد •

ويأتى الصياد الشاب بلحم حيوان قتله فى أمسه ،فتطهوه رفيقته على النار

حتى اذا نضج ، التقطت من الفحم عظمة مدخنة ، ثم تضربها ضربة فتنكسرها وتناولها للرجل ، فيدفع أصبعه فى طرفها الأجوف ، ويخرجها وقد علق بها النخاع ،، فيمصه حتى اذا أتى عليه ، نهش اللحم من العظمة بأسنانه القوية البيضاء ، ولا تأكل المرأة من اللحم الا اذا امتلأ الرجل .

فاذا علت الشمس كبد السماء ، خرج الصياد الشاب ورفيقته قاصدين الى كهف الكاهن ، وكل منهما له مطلب ، وما يبلغانه حتى يبدأ الرجل بالسؤال ، أيسوق الكاهن اليه كثيرا من الحيوان يقتله فى صيده ؟ اذا قدر له ذلك فسوف يجلب لرفيقته اللحم لتطهوه ،والجلود لتخيطها ثيابا . أتكون أوبته الأولى الى مسكنه مباركة بنعمة الصيد الوفير ؟

ويستمع اليه الكاهن فى هدوء ،ثم ينهض فيملأ مصباحا من حجر أجوف بالدهن ويشعله ، ثم يدخل الكهف ، ويقف الصياد دون الباب ، لأنه لا يباح له دخوله ، ويرقب الكاهن وهو يمزج أصباغه فى صدفة . ثم يعمد الكاهن الى عصاة حرق بعضها فى موقده ويرسم جاموسة وحصانا بريا وأيلا ، ثم يتناول أصباغه من اللون الأحمر والأسود والاصفر والاسمر ، ويلون هذه الحيوانات . ثم يرسم آخر الامر سهما أحمر نافذا فى قلب كل منهما . ولا يتنفس الصياد الصعداء الا اذا رأى السهام . فهو يعلم عندئذ أن نصيبه من الحيوان كبير ، وان الكاهن قد باركه بنعمة الصيد الوفير .

واذا خرج الكاهن من الكهف دنت منه المرأة ، وتقدمت اليه بسؤالها أيقدر لها أن ترزق بأولاد كثيرين ،يزداد بهم فى قابل الأيام عدد الصيادين الشبان فى القبيلة ؟ أيفيء عليها الكاهن نعمة الولد ؟

ويسألها حكيم القبيلة أن تعود اليه متى جاوزت الشمس السماء ست

مرات ، وعندها يكون قد نقش صورتها على العظم ، فاذا ملكت يداها هذا النقش ، اطمأنت الى نعمة الولد الكثير .

ويؤوب الزوجان من كهف الكاهن سعيدين ، بما بذل لهما من وعود ويهمان شطر كهف صانع الأدوات ، فيحصل منه الصياد على سلاحه الجديد ، وهو عبارة عن سكين لطيفة من الصوان ، سويت على هيئة ورقة رفيعة ويعد الصياد صانع الأدوات بجلد من خير ما يصطاد من حيوانات ، لقاء هذا السكين ، ولا شك فى أنها تستحق هذا الثمن .

ويسمع الصياد الشاب وزوجته صراخا ، فيخفا نحوه ، فيجدا أهل القبيلة مجتمعين عند كهف الزعيم ، والعويل يملأ رحاب الجو ، حزنا على وفاة أكبر أبناء الزعيم ، وكان يرجى أن يخلفه فى يوم من الايام ، ذلك أنه هبط الى النهر فتعثر وسقط ، فارتطم رأسه بصخرة عظيمة .

ويدخل الكاهن كهف الزعيم ، ويتولى شباب القبيلة تجهيز الميت تحت ارشاده ، ويضعون الى جانبه اللحم ، ويحوطون رأسه بهالة من الأصداف وينتقون خير أسلحته ، ويوسدونه بها . ثم تقبل زوجته الشابة ، فتنحنى عند قدميه فيعالجها الكاهن بضربة واحدة خاطفة من فأس حجرية فى يديه فتخر صريعة عند قدمى سيدها .

وهكذا يتم تأهب ابن الزعيم للرحلة الى العالم المجهول ، مزودا بطعامه وسلاحه ومصحوبا بشريكة حياته ، التى ستقوم على خدمته ، ثم يجلب التراب الأحمر الى الكهف لاهالته على الجثتين ، ذلك ان اللون الأحمر من الألوان المقدسة . فاذا تم كل هذا وضع حجر كبير أمام القبرين فيعزلهما عن مقدم الكهف حيث تسكن أسرة الزعيم .

وبذلك يمكننا أن نقول ان الحياة فى العصر الحجرى القديم ، كانت الى حدما تجرى على نحو ماتجرى عليه اليوم •فالرجال والنساء يتعاونون على اقامة البيت ،وينجبون الأطفال ، ويأتى الرجال بالزاد فتطهوه النساء ، ثم يدركهم الموت فيدفنون ، وفقا للشعائر المرعية فى القبيلة (١)

العصر الحجرى الحديث •

بداية الاستقرار :

مضى العصر الحجرى القديم فى المرحلة الواقعة بين سنتى ٢٠٠٠٠ ق•م و٦٠٠٠ ق•م ، وكانت المرحلة الاخيرة منه مرحلة تحـول مناخى ، هذا التحول المناخى ينتهى الى تغير كبير فى بعض الجهات حوالى سنة ٦٠٠٠ ق•م• ولو أنه تأخر عن هذا التاريخ ، أى أن ظروف البرودة والمطر ظلت قائمة فى بعض البلاد الى وقت متأخر ، وان بلادا أخرى زالت فيها هذه الظروف ، وتحولت الى الدفء والجفاف • فكان الذى ساعد على وجود العصر الحجرى الحديث ، هو العامل المناخى ، وأن هذا العامل المناخى يتمثل فى أمرين رئيسيين هما : الدفء والجفاف ويمكن القول بصفة عامة ان الحالة المناخية، التى يعيش فيها العالم فى الوقت الحاضر ، هى الحالة التى بدأت مع العصر الحجرى الحديث •

واذا نظرنا الى النتائج المترتبة على هذا التغيير المناخى ، نجد أن هذه النتائج ، كانت العلامات التى تميز العصر الحجرى الحديث ، وقد سبق القول بأن هذا التغيير المناخى شمل الدفء وشـمل الجفاف أما الدفء فمن شأنه أن يبعث على انتشار الناس : فالنتيجة الأولى المترتبة على الدفء ازدياد معرفة الجماعات لبعضها ، واختلاط الجماعات ببعضها : وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة • وبصفة عامة يمكن القول •ان

---

(١) عن كتاب الحاضر يبحث حيا ٢٢ — ٢٦ •

السلالات الجنسية التى نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر بدأت تتكون منذ العصر الحجرى الحديث .

ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية ، بل انتقل هذا الاختلاط من النواحى الجنسية الى النواحى الاجتماعية . فوجدت العلاقات بين الناس وبعضهم سواء كان علاقات سليمة أو علاقات حربية . ويمكن القول أيضا ان العلاقات كما نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر كالعلاقات الثقافية والعلاقات الاقتصادية كالتجارة وغيرها ، ثم العلاقات غير السلمية كالاستعمار — كل هذه العلاقات — بدأت مع العصر الحجرى الحديث . وكان الدافع اليها انتشار الدفء الذى شجع على انتشار الناس

أما الجفاف : فقد أدى الى نتائج بعيدة المدى أيضا فى حياة الناس فأخذت السكنى تنحصر فى كل قطر من الأقطار على شواطىء المجارى المائية الدائمة وهى الأنهار ، لأن المطلب الاول للانسان وهو الغذاء لابد ان يكون مضمونا فى كل يوم ، والماء جزء من الغذاء بل هو أشد نواحى الغذاء أهمية ، واذن فبحسب توزيع المياه فى العصر الحجرى الحديث ، يكون توزيع الانسان ، وترتب على هذا الوضع نتائج كبيرة فى حياة الانسان أهمها الاستقرار حول مجارى الانهار . فأخذ يبنى له مسكنا بالقرب من هذا المجرى ، وتجمعت المساكن الى ان كونت قرية ، وتعتبر نشأة القرى العلامة الاولى من علامات العصر الحجرى الحديث . ونحن نعلم أن العلاقتين المناخيتين الدفء والجفاف وجدا أولا فى العروض الوسطى ، ولذلك نتوقع ان تكون نشأة العصر الحجرى الحديث لأول مرة فى بقع معينة من هذه العروض ، وأن هذه البقع المعينة كانت المدرسة الأولى التى علمت الانسان حضارة العصر الحجرى الحديث ، ومن أمثلة هذه

البقع المعينة : مصر وغرب آسيا التى نشأت فيها أول حضارات العصر الحجرى الحديث •

واذا كان المطلب الأول للانسان وهو الغذاء ، أدى به الى الاستقرار بالقرب من مجرى النهر ، فان مطلبا آخر هو لذى أدى به الى انشاء القرية ، وذلك أن الانسان بعد ن ينتهى من ترتيب طعامه وشرابه يحتاج الى ترتيب أمنه ، وهذا الأمن لا يتوفر الا بالاجتماع •

ففضلا عن أن الانسان حيوان اجتماعى بطبعه ، هناك فائدة مادية من اجتماع المساكن الى بعضها هى التعاون المشترك فى استغلال البيئة ، وفى الدفاع ضد المعتدى حيوانا كان أو انسانا •

والمهم أن الاستقرار ونشأة القرى كانت النتيجة الأولى لهذا التغير المناخى وهذا الاستقرار هو العلامة الأولى التى تميز العصر الحجرى الحديث •

حرفة الصيد :

وأول ما ننتظره كنتيجة لهذا الاستقرار ، هو أن يغير الانسان أسلوبه فى استغلال الطبيعة ، فالجماعة لم تعد تتجول طوال الوقت بل أخذت تستقر لفترات طويلة •

واذا كان الانسان فى العصر الحجرى الحديث مازال يستخدم سلاحه فى صيد الحيوان ، أى انه مازال يحترف حرفة الصيد ، فان طبيعة هذه الحرفة فى هذا العصر أصبحت مختلفة عن العصر الذى سبقه • ذلك ان الانسان فى نهاية العصر الحجرى القديم كان يتجول ليبحث عن صيده ، أما فى العصر الحجرى الحديث فان الحيوان هو الذى كان يسعى ليرتوى من نفس المجرى الذى استقر الانسان على شواطئه •

استئناس الحيوان :

هذا التحول فى طبيعة حرفة الصيد ، أدى الى نشأة حرفة جديدة تتعلق بالحيوان ، هى حرفة استئناس الحيوان ، ومعنى ذلك أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطان الانسان . وينبغى أن تفرق هنا بين أن يألف الانسان الحيوان ، وبين ان يستأنسه . فالألفة مرحلة أولى ، وهى ان الحيوان تعود على شكل الانسان فأصبح يألفه ولا ينفر منه ، ثم بمرور الزمن وجد نوع من المودة بين الفريقين بفضل المعاملة اللطيفة ، التى أصبح الانسان يعامل بها هذا الحيوان .

ويدخل فى هذه المجموعة الكلب ، ويقال ان الكلب هو أول حيوان ألف الانسان . اما الاستئناس الكامل فشمل عدة حيوانات أخرى هى الحيوانات التى تمده بالغذاء . فوجد الانسان بعد التحول الى حياة الاستقرار أن من صالحه ان يربى هذه الحيوانات وأن تكون هذه الحيوانات فى حوزته ، ولم يصل الى هذه المرحلة الا بعد تفكير طويل ، وبعد دراسة طويلة لطبائع الحيوان ، ومن أجل هذا لا ينبغى أن تقلل من قيمة هذا الكشف الجديد الذى وصل اليه الانسان . فادراكه انه من الممكن أن يعيش هذا الحيوان معه فى مسكن واحد ، ثم الجهود التى بذلها فى هذا السبيل ، كل هذا يعتبر مرحلة متقدمة جدا من مراحل حياة الانسان ، ويقال ان استئناس الحيوان كان المرحلة التالية مباشرة للاستقرار ، أى أنها مرحلة سبقت الزراعة ، وبمعنى آخر أن حرفة الرعى كانت حرفة سابقة لحرفة الزراعة ، وان الانسان وصل الى اختراع الرعى قبل ان يصل الى اختراع الزراعة .

وقد كشفت عمليات الحفر والتنقيب فى السودان عن وجود بقايا مساكن فى (الشعيناب) غربى شاطىء النيل ، وعلى بعد ٢٠ ميلا من أم درمان كما وجدت كذلك هياكل بعض الحيوانات كالماعز والضأن متروكة قرب هذه المساكن . وفى مصر كشفت البحث عن محلات فى دير تاسا بالقرب من البدارى بمديرية أسيوط ، وفى مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا ، ثم فى العمرى فى شرق الدلتا ، ثم فى الفيوم على شواطىء بحيرة قارون وفى كل هذه المحلات فى مصر والسودان نجد الاستقرار واضحا ، ويستدل عادة عن أماكن الاستقرار اما من القرية ، أو من مساكن الأحياء أو من الجبانة أى مساكن الموتى (شكل ٦)

وكذلك كشف التنقيب عن وجود آثار فى تل حسونة على بعد بضعة أميال من مدينة الموصل الحالية ، وفى تل حلف بالقرب من منبع نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات وفى تل العبيد فى المنطقة التى يصب فيها نهرا الدجلة والفرات عند الخليج الفارسى .

اختراع الزراعة :

وفى الوقت الذى كان الانسان يربى الحيوان ، كان يفكر فى وسيلة لغرس الحبوب حتى تعود ثمرا ناضجا ، وليس لدينا دليل قاطع يبين لنا كيف عرف الانسان غرس البذور ، ولكن يبدو أن الانسان كان يتساقط منه بعض الحبوب فى الطريق ، وعندما تنزل الامطار تنمو ثم تنضج فيلاحظها الانسان .

ولما كان من عادة الانسان فى تلك العصور أن يدفن بعض الحبوب مع الموتى كما كان يدفن آلاتهم ، فقد تنمو بعض الحبوب فى أطراف المقبرة ، أو فوقها عندما تنزل الامطار ، فيلاحظها الانسان .

البحر المتوسط

مرمدة سلامه

هليوبوليس

المعاده

حلوان

سقارة

ممفيس

ابو جبير

البحر الأحمر

ديرتاسا

البدارى

ابيدوس

العمرة

وندرة

نقادة

هيراكونبوليس

شكل ٦

عصر ما قبل التاريخ في مصر

فظروف الاستقرار اذا مكنته من تتبع أدوار حياة النبات عاما بعد عام، ثم صعوبة استغلال هذا النبات بعد الاستقرار . دفعته الى ان يخترع الزراعة وان يجمع الحبوب البرية ويبذرها بالقرب من مسكنه ، لكى ينتج مجموعة من النباتات متحدة من نوعها ، وهذه هى الزراعة .

ولا يعلم أحد على التحقيق كيف وأين بدأت الزراعة ، وان كنا على يقين بأن بعض الناس فى العصر الحجرى الحديث ، كانوا يستنبتون الشعير والقمح والدخن ، وكذلك كانوا يعرفون الكتان الذى يصنع منه التيل . لكن لابد أن الانسان قد اعترضته صعوبات كثيرة قبل أن يصل الى اختراع الزراعة ، كالفيضانات التى لا تحدث الا مرة كل سنة ، وكوجود الأحراش والحشائش والمستنقعات ، اذن لابد من عمل شاق جدا لتنظيف الأراضى من الحشائش ، وحفر الترع وشق القنوات واقامة التروس لاستثمار مياه الأنهار .

والمساحات التى وجدت كمساكن فى الساحات التى كان يغمرها زمن الفيضان دجلة والفرات والنيل ، كلها تشير الى ان أهلها كانوا فى حالة طيبة من الثراء لم يسبق أن عرفها قبل ذلك التاريخ ، وتعزى أسباب هذا الغنى الى الرى .

اذن مكنت الزراعة أولئك الناس من ان يحلوا مشكلة ايجاد مايكفيهم من طعام ، بعد ان تكونت الصحراء من حولهم .

نمو مساحة القرية :

ثم أخيرا بعد ان استقر الانسان فى مسكن ، وعرف استئناس الحيوان

وعرف الزراعة ، كان طبيعيا أن تنمو مساحة القرية ، وأن توجد بعض المساكن لكن ليست بقرب مجرى النهر مباشرة ، ثم فى وديان الأنهار ذات السهول الفيضية ، أى فى أبعد مكان يصل اليه ماء النهر وقت الفيضان ، أو بتعبير آخر يجب أن تكون القرى بعيدة عن منال الفيضان .

ولما كانت حاجة الناس الى الماء مستمرة . فلا بد اذن من التفكير فى وسيلة لخزن الماء ، ووجد أنه لابد من عمل نوع من الآنية يحمل فيها الماء من النهر ، ونستطيع ان نتصور ان الأوانى الأولى كانت من جلود الحيوان (القربة)، ولكنه وجد أن هذه القرب ، مع انها صالحة لحمل الماء الا انها ليست صالحة لخزنه ، فوصل الى طريقة أخرى لحمل الماء هى صناعة الفخار

صناعة الفخار : وصل اليها أيضا بعد تفكير ، وربما تيسر صنع الفخار

الأول بتكبيس الصلصال على ظاهر سلة من السلال التى كان قد تعلم صنعها من قبل ، ثم تعلم الناس كيف يشكلون الأوانى بأيديهم فصنعوا الجرار والطاسات والصحاف ، ولم يكن صنع الفخار الجيد بالأمر الهين ، فقد كان ذلك يقتضى العثور على الصلصال الملائم وتخليصه من عيدان الخشب والحصى ، ثم يمزج بمادة أخشن منه وأغلظ مثل الرمل ، فاذا صنعت الآنية وضعت فى النار حتى تتصلب ، وكثيرا ما كانوا ينقشون على الفخار أشكالا أو يرسمون عليه صورا .

وفى حوالى سنة ٣٫٥٠٠ ق م اخترع الخزافون العجلة لصنع الفخار فى سومر فى جنوب العراق . وعرفتها مصر بعد ذلك وطبيعى أن العمل بواسطة العجلة قد سهل وحسن مستوى الانتاج فصار العمل أسرع والانتاج أغزر ، وعن بلاد الشرق الادنى عم استعمال هذه العجلة فى كل بلاد العالم القديم بعد ادخال اصلاحات بسيطة عليها .

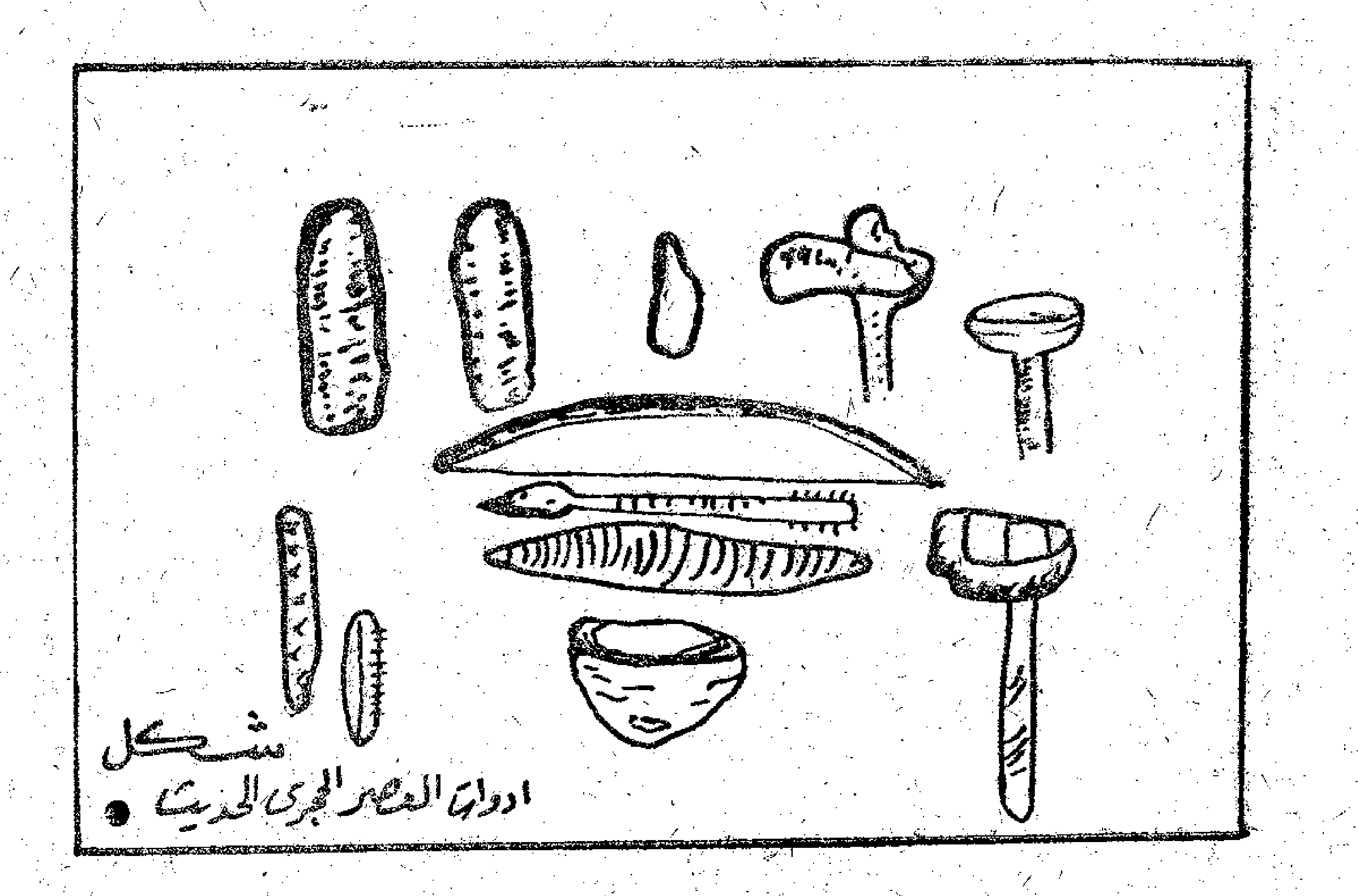
وبهذا وجدت المظاهر الأربعة الرئيسية للعصر الحجرى الحديث وهى نشأة القرى (الاستقرارى)، واستئناس الحيوان ، واستئناس النبات (الزراعة) ، وصناعة الآلات الفخارية .

ولما تدرج الانسان فى الرقى خلال العصر الحجرى الحديث ، أصبحت هذه المظاهر الأربعة ، التى ذكرناها ، مألوفة له ، فأخذ فى الوصول الى مظاهر حياة أخرى أهمها التخصص المهنى ثم التجارة ، وبعدهما كان لا بد أن تقوم العلاقات غير السلمية ، فتكثر الحروب ، وينشأ الاستعمار .

لم يعد انسان هذا العهد يعتمد على ما تجود عليه به الطبيعة ،فلم يعد ملتقطا وجماعا وصيادا ، بل احترف الرعى ثم الزراعة . ونستطيع أن نلحظ ماطرأ على اقتصاديات الانسان ، وهو يمارس هاتين الحرفتين من أشكال الآلات الحجرية ، اذ تغيرت المادة الخام ، ولم يعد استخدام الآلات مقصورا على الصوان والحجر الرملى ، بل أصبحت الأحجار النارية كالجرانيت والنايس ، تستخدم فى صنع الآلات ، وذلك لأن
النارية كالجرانيت والنايس ،تستخدم فى صنع الآلات،وذلك لأن التخصص الاقليمى قد وجد ، ولا بد أن تعتمد كل جماعة على استخدام ما فى بيئتها .

ولم تتنوع اشكال الآلات والأدوات الحجرية نتيجة لاختلاف المادة الخام فحسب بل نتيجة أيضا للاغراض الجديدة ،التى أصبحت تؤديها فمعرفة الانسان للزراعة تقتضى أن تتوفر لديه آلة لحرث الأرض ، واعدادها للزراعة ، وآلة لحصد الزرع ، ثم هون أو رحى لطحن القمح، هذا فضلا عما حدث بخصوص تهذيب أسنة الرماح والسهام حتى أصبحت مصنوعة بدقة ، وبجوار الآلات الحجرية ، أمدهم العظم بنصال لتسليح الخطاطيف (السنارات) أو عمل الابر لحياكة الجلود .

وقد عثر فى مخلفات بعض مساكن هذا العصر على أمشاط من العاج لترجيل الشعر وكذلك وجدت عقود من الحجارة للزينة، كما عثر فى الشعيناب على بعض مخلفات يرجع تاريخها الى الى هذا العصر ،وبفحصها دلت على أن سكان هذا العصر فى السودان كانوا يدهنون أجسادهم بالمغر (شكل ٧)


شكل
ادوات العصر الحجري الحديث

التجـارة :

بعد هذا التغيير فى صناعة الآلات نتيجة للتخصص الاقليمى ، وتوزيع المادة الخام فى كل اقليم ، نجد أن هذا التخصص الاقليمى أوجد حرفة رابعة فى هذا العصر هى التجارة والتجارة نتيجة حتميــة لتوزيع المادة الخام وما يتبع توزيعها من تخصص مهنى ، والمقصود بالتخصص المهنى أن يقوم كل جماعة من الناس بعمل خاص فتتخصص جماعة فى استغلال المناجم أى بقطع الحجارة ، واعداد المادة الخام للصناعة ، وتقوم جماعة أخرى بتحويل هذه المادة الخام الى آلات ، فى منطقة المحاجر والمناجم نفسها ، وهؤلاء الذين يقيمون فى منطقة المناجم ، محتاجون الى الطعام والماء ، فلا بد أن يعد لهم ذلك فى القرية نفسها ، ولابد ان يمونوا القرية بالآلات والمعدات فى مقابل أن يحصلوا من القرية على المواد الغــذائية أى أنه وجد فى ذلك الالعصر طبقة صناع وطبقة زراع ، ولابد ان توجد بينهم طبقة ثالثة هى طبقة التجار .

وليس فى الامكان ان يجد الانسان كل ما يحتاج اليه فى المكان الذى يعيش فيه ، بل لابد من استيراد بعض الاشياء فى أماكن استقرارها خارج دائرته ، مثال ذلك ان نساء الشعيناب كن يلبسن بعض الحلى المصنوعة من نوع من الحجر ، لا يوجد فى وادى النيل مطلقا ، كذلك فى مصر فى نفس هذا العصر ، كانت تصنع أدوات الزينة من نوع من الحجر الذى ربما أحضر من جبال تبستى Idesti من وسط الصحراء الغربية .

معنى ذلك أن كل الأقاليم ليست محظوظة فى توزيع المادة الخام ، فبعض الأقاليم عندها فائض عن حاجتها ، وأقاليم أخرى فقيرة ، وبحكم ما فطر

عليه الانسالان من حرص وطمع ، حاولت كل جماعة ان تعتبر كل منطقة من المناطق التي تعيش فيها ، أو توجد بقربها ميدان نشاطها هذا الميدان ـ الذي سيكون ما يعرف بالدول ، ذات الحدود السياسية فيما بعد ـ موجود منذ القدم ، ولا زال موجودا عند الجماعات البدئية حتى الوقت الحاضر ، فالجماعة المحرومة من المادة الخام ـ بسبب عدم عدالة الطبيعة فى توزيعها ـ تحاول منذ القدم أن تحصل عليها عن طريق القوة ومن هذا وجد ما نسميه بالاستعمار منذ اللحظات الأولى التى استقر فيها الانسان.

ولكن لاشك أن التجارة قد هيأت للناس كثيرا مما كانوا يحتاجونه لتيسير سبل معيشتهم ، فجعلت من حياتهم حياة متنوعة سعيدة تبشر بمستقبل زاهر .

وجدير بالملاحظة أن اختراعات واكتشافات هذا العصر لم تعرف فى جميع أنحاء العالم فى وقت واحد . فقد تمت هذه الاكتشافات أولا فى الشرق الأدنى ، ولم تعرف فى أوروبا بعد ذلك بزمن طويل ، وفى بعض الأماكن لم تعرف هذه الاكتشافات الى الآن . فبعض الباشمن لا يعرفون الزراعة وكثير من أهالى أواسط استراليا وتسمانيا ، مازالوا يعيشون على نفس الطريقة التى كانت تسود العصر الحجرى القديم .

عصر المعادن :

وفى منطقة الشرق الأدنى بدأ العصر الحجرى الحديث قبل سبعة آلاف سنة ، وفى نفس المكان دخل الناس فى تطورهم التاريخى الثالث ، قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، وذلك عندما عرف الناس استعمال المعادن . وأول معدن استعمله الانسان فى صنع آلاته هو النحاس ، وهذا المعدن يتواجد بكثرة فى جهات متعددة فى الشرق الأدنى مثل شبه جزيرة سينا ، وعمان ، وقرب ايران ، وفى بعض الأحيان يوجد النحاس منفصلا

عن الصخور فوق سطح الأرض ، وعلى أى حال فان النحاس اسهل المعادن التى يمكن استخراجها من الأحجار التى تحمل مادة النحاس ، وذلك بطريق صهره بالنار ، ولسهولة الحصول عليه كان النحاس أول معدن استخدمه الانسان فى أغراضه .

وأول أدوات نحاسية اكتشفت هى عبارة عن دبابيس نحاسية ،وجدت بين بعض الآثار فى نقادة (بمصر العليا) وكذلك اكتشفت حبات عقود نحاسية فى حسونة التى تقع عند ملتقى نهرى دجلة والفرات فى شمال العراق ، وقد وصنعت هذه الأدوات قبل حوالى ٦٠٠٠ سنة ، وبعدذلك عم استعمال النحاس فى وادى النيل ، ودجلة والفرات .

أما الطريقة الأولى لصنع الآلات النحاسية فكانت بدائية جدا حيث كانوا يحضرون قطعة من النحاس ، ويضربونها بشاكوش من الحجرحتى يتحصلوا على الشكل المراد ، ومثل هذه الطريقة تتطلب مجهودا عظيما ، ولا يمكن صنع غير الآلات البسيطة السهلة التركيب مثل الدبابيس والسكاكين .

أما الطريقة الثانية فكانت بصهر النحاس ثم صبه فى قوالب مصنوعة من الطين أو الرمل ، وهذه الطريقة سهلة . وتمكنهم من عمل كل الأدوات التى يحتاجون اليها .

وكانت معرفة النحاس فتحا جديدا فى عالم الصناعة فى هذا الوقت ، فالأدوات أصبح من الممكن صنعها من النحاس بصورة جيدة متقنة . وأصبحت هذه الأدوات أكثر صلابة ، وأقل عرضة للكسر من الأدوات الحجرية ، كمااستطاع الانسان بفضل الآلات النحاسية ،أن يصنع أثاثات

خشبية جميلة لم تكن معروفة من قبل ، أى أن الإنسان اصبح من الممكن ان يصنع أدوات كثيرة مختلفة لأى عمل يريد القيام به ، ذلك لانه من الممكن سن الآلة النحاسية اذا فقدت حدتها .

وتبين للانسان بعد مدة أنه اذا خلط النحاس بالقصدير حصل على معدن أشد من النحاس صلابة وهو البرنز ، ثم أمكنه بعد ذلك أن يستعمل الحديد وذلك فى العصر الرابع من العصور السابقة للتاريخ .

ويجب ألا نفهم من هذا التقسيم أن الأمم كلها مرت فى تلك العصور الأربعة الواحد بعد الآخر ، فبعضها بقى يستعمل الآلات من الحجر دهرا طويلا جدا ، وبعضها كان سريع الخطى ، عرف الكتابة وقت أن عرف المعادن ، وبعضها انتقل من استعمال الحجر الى استعمال الحديد دفعة واحدة

الفصل الثانى

السـودان فى عهد الدولة القديمة

٣٢٠٠ — ٢١٦٠ ق ٠ م

كان تاريخ السودان منذ آلاف السنين قبل الميلاد مرتبطا تمام الارتباط بتاريخ مصر ، اذ كان الاتصال وثيقا بين السودان وبين مصر ، بلد المدنية الأول • وكان هذا الاتصال فى بدئه تجاريا ثم مالبث أن أصبح شمالى السودان — مركز حلفا وشمالى مركز دنقلا — جزءا من الدولة المصرية فى عهد الدولة الوسطى الفرعونية ، وطال الأمد على بقاء هذا الجزء تحت النفوذ المصرى ، بل ان ذلك النفوذ امتد حتى الشلال الرابع •

ونتيجة لهذا الاتصال طوال هذه الحقبة ، تسربت الى تلك الجهات عوامل الحضارة المصرية القديمة ، التى كانت قد قطعت شوطا كبيرا فى التقدم والرقى فى جميع مرافق الحياة ، فى الحكومة وفى الدين وفى العمارة والفنون • واستمر الجزء الشمالى من بلاد السودان ينهل من حضارة المصريين حتى تمصر تماما فى كل شىء ، فى حكومته وفى عباداته وفى عمارته وفى فنونه •

لذلك كله لا يمكننا أن ندرس تاريخ السودان فى تلك العصور دراسة وافية ، الا من خلال دراستنا لتاريخ مصر • ونفترض هنا أن القارىء يعرف شيئا عن هذا التاريخ ونكتفى باشارات طفيفة كلما دعت الحاجة الى ذلك ، حتى لا نبتعد عن هدفنا المنشود •

فباختراع الكتابة فى مصر حوالى سنة ٣٥٠٠ ق٠م بدأ العصر التاريخى الذى يتميز بأسانيده ونصوصه المكتوبة ، التى ساعدت كثيرا على وضوح معالمه التاريخية ، كما تميز أيضا بما استقام للمصريين فيه من حضارة متميزة ذات طابع خاص ٠ واصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ مصر القديم الى أسرات ، أطلق على كل عدد منها اسم يميزها ٠

فالأسرتان الأولى والثانية تؤلفان بداية عهد الدولة القديمة ، ويسمى عهدها عادة « بالعهد الطينى »(١) والأسرات من الثالثة الى نهاية السادسة « بعهد » بناة الأهرام (٢)٠

السودان فى العهد الطينى

دلت البحوث العلمية ، والكشوف الأثرية الحديثة دلالة واضحة على أن بلاد النوبة كانت منذ عهد ما قبل التاريخ أمة واحدة هى ومصر من حيث السلالة والحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية ، فقد أثبتت بحوث علماء علم الانسان،الذين فحصوا عن الجماجم البشرية فى كلا القطرين،أن كلا من المصرى والسودانى ينسب الى سلالة واحدة هى السلالة الحامية وقد ظلت هذه السلالة نقية حتى عهد الأسرة ١٨ حوالى ١٥٨٠ ق٠م ٠، وذلك عندما أخذت السلالة الزنجية الجنوبية تختلط بالسلالات الحامية فى الشمال بعض الشىء ٠ كما دلت أحدث الكشوف التى عملت عندما

---

(١) نسبة الى مدينة طينة ، وكانت تقع على مقربة من البلينا جنوب غربى جرجا ٠

(٢) وهو يمتاز بكثرة ما أقيم به من أهرامات فى جهات متعددة من وادى النيل ٠

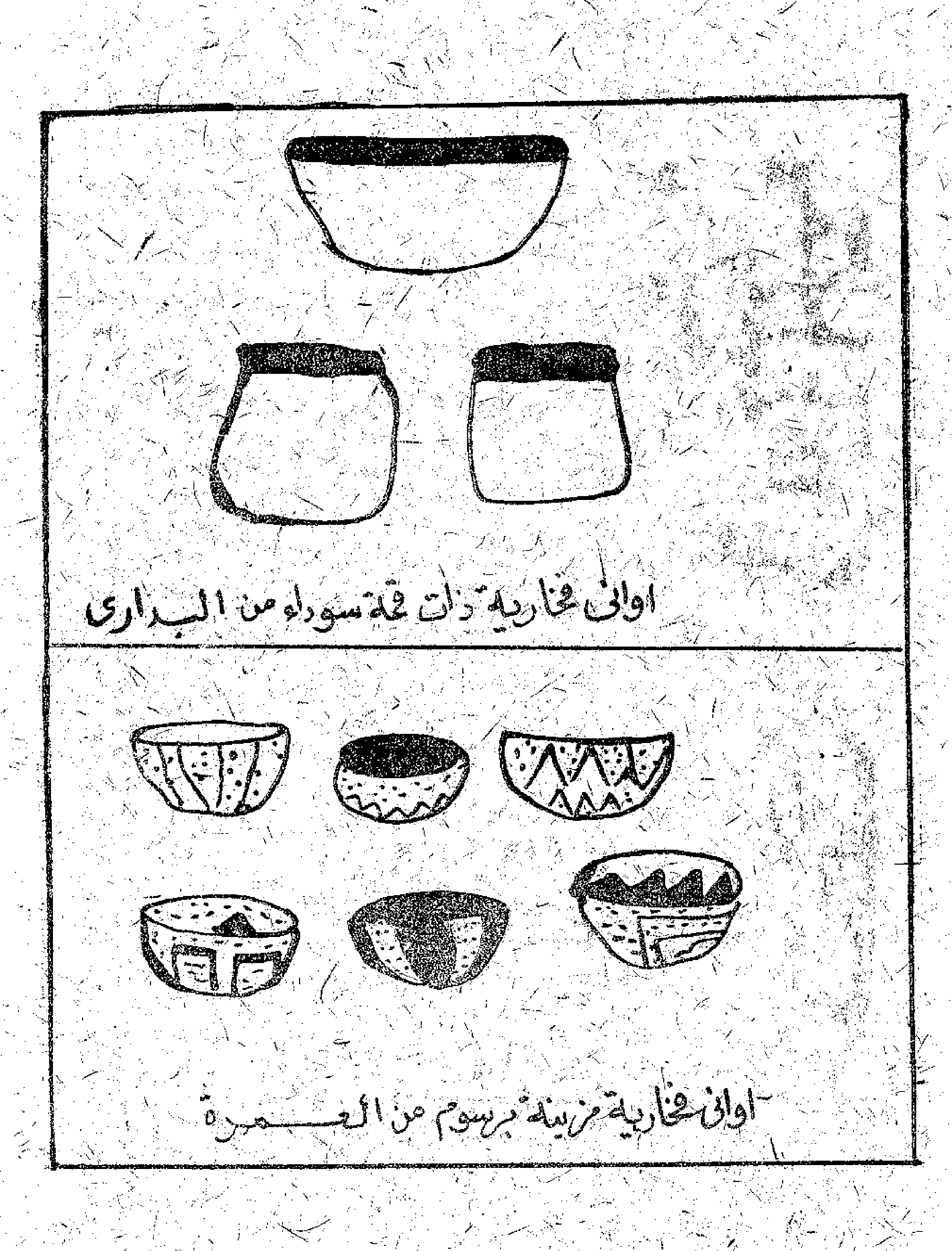
أقيم خزان أسوان عام ١٩٠٢ ، وعندما بدأت التعلية الأولى حوالى عام ١٩٠٧ ، على ان الحياة فى كل من بلاد النوبة ومصر كانت موحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد وجد ان محتويات القبور وأشكالها فى كلا البلدين من حيث الأوانى المنزلية والمأكل والملبس وعادات الدفن واحدة وليس هناك أية فروق قط ، كذلك كانت الحيوانات الأليفة والبرية المعروفة للسلالات النوبية القديمة تشبه كثيرا الحيوانات التى كانت فى مصر فى نفس العصر ، مما يدل على ان مصريى ماقبل التاريخ كانوا يحتلون وادى النيل من اقصى الشمال حتى الشلال الثانى على ما يظهر .

ويعتقد الأثرى برتتون ، أن كثيرا من المقابلة للاشياء التى ترجع الى عهد ما قبل الأسرات المبكر المستخرجة من حفائر البدارى (بمديرية أسيوط) ، (شكل ٦) وبخاصة الصوانى والمخارز المصنوعة من العظم ، وما أشبه ذلك ، قد وجدت فى بلاد النوبة . وأهم ما يلفت النظر بين هذه الأشياء ، أشكال الفخار المستعملة فى كل من المنطقتين (شكل ٨) فنجد أن الكاس ، التى كانت أكثر الأشياء شيوعا واستعمالا فى البدارى ، كانت توجد كذلك بكثرة فى بلاد النوبة ، حيث استمرت عدة قرون مستعملة فى أنحاء هذه البلاد .

وعندما كشفت جبانة (بهان) ، الواقعة على مسافة قريبة من شلال أسوان ، أى فى أقصى الحد الشمالى لبلاد النوبة ، دل ماوجد فيها من الأشياء على أنها تنتمى الى حضارة نقادة الأولى (١) فى مصر . ونخص بالذكر من بينها أوانى أسطوانية وسطها مفرطح وذات قاعدة مصنوعة من حجر البازالت

---

(١) منطقة أثرية بجهة قنا يرجع تاريخها الى فترة ما قبل الاسرات أى حوالى (٤٠٠٠ — ٣٢٠٠) انظر الخريطة شكل (٦) .



اوانى فخارية ذات قمة سوداء من البدارى
اوانى فخارية مزينة برسوم من العمرة

أو البريشيا ، وأوانى من الفخار الأملس لها حافة عريضة سوداء ، وأطباقا مدهونة باللون الأبيض .. الخ

ولقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب عن وجود الكثير من الأماكن فى بلاد النوبة ، اشتهرت بآثارها التى ترجع الى عصر ما قبل التاريخ منها جبانات فى « دكة » وتحتوى على أكثر من ست مئة مقبرة ، وتعد من أعظم مدافن النوبة فى هذا العصر . وفى « السيالة » وغيرهما (شكل ١٠) وفى هذه الجبانات سالفة الذكر نجد أن القبر كان صغيرا ومستطا ، وأن الجسم قد وضع فيه مضطجعا أو مقرفصا على الجانب الأيسر ، والرأس متجه نحو الجنوب وكان الجسم عادة يغطى بالحصير أو بجلد حيوان . أما الأثاث الذى وضع مع المتوفى فيحتوى على الفخار (صناعة مصرية) . نذكر منها القعاب الحمراء المصقولة ، التى يحيط بها شريط أسود ، والأطباق الصلبة ، ذات اللون الأحمر الداكن ، وهى التى يرسم عليها أشكال هندسية أو صور ، وقد جىء من مصر بأوان للكحل من الأردواز الاخضر . هذا ويدل وجود الأدوات المصرية فى تلك المقابر النوبية ، كما يدل وجود المحاصيل النوبية فى المقابر المصرية ، على التبادل التجارى بين البلدين . فالأبنوس الذى وجد فى المقابر المصرية ، وهو ان كان فى الأصل من شجرة هندية الا ان بعض الأثريين برهن على ان هذا النوع من الشجر ، كان ينمو فى السودان ، وعلى ذلك كان يتجر فيه مع مصر .

طرق التجارة :

وعلى الرغم من ان اقليم الصحراء فى شمال السودان ، قد وقف عقبة كأداء فى سبيل المواصلات ، الا أن الانسان تمكن من اجتيازه بالانتقال من

بئر الى بئر • وكان أسهل طريق لاجتياز الصحراء من أقدم العصور هو وادى النيل من شمال الخرطوم الى مصر •

وتدل النقوش التى تركها ملاحو السفن فى عهد الدولة القديمة ، والدولة الوسطى الفرعونية • على استعمال هذا الطريق المائى حتى الشلال الثانى على الأقل • ومن المحتمل ان تكون هذه الطريقة معروفة ومستعملة منذ أقدم العصور ، وكانت الرحلة تستغرق ذهابا وايابا حوالى سنة •

أما طرق الصحراء الشرقية ، التى ربما تكون قد استعملت فى تلك الأزمنة القديمة ، فهى الطريق التى تخرج من عند النيل فى « دراو » شمال أسوان ، وتمر فى سلسلة آبار • وبعد مسير مدة تتراوح بين ١٦ — ٢٠ يوما : تصل الى النيل فوق بداية منحنى دنقلة العظيم • وفى الأزمان الحديثة تؤدى هذه الطرق الى شندى وسنار ، ومن شندى تخرج طرق أخرى الى سواكن أو الحبشة ، وتخترق الصحراء الى « مروى » و « كورتى » فى مديرية دنقلة ، ومن سنار كانت الطرق مفتوحة الى كردفان ودارفور وغرب افريقية • وأما طرق الصحراء الغربية فكانت الطريق من أسوان الى واحة سليمة فساو أو كرمة ، فى نظر مصريى الدولة القديمة عملية أكثر من طريق (درب الأربعين) ، الذى يخرج من اسيوط الى سليمة الى دارفور والطريقة الأولى أفضل اذ كانت تسمح باستعمال النهر حتى أسوان ومع ذلك كانت تمر بهم على كل القبائل التى اشتهرت بالنهب وفرض الضرائب • اما التجار الجنوبيون ، الذين كانوا يسعون الى مصر ويرغبون فى تجنب تعرض الموظفين المصريين لأموالهم ، وقبائل واوات ، فكان طريق الأربعين أوفر لهم (شكل ٩) .

طرق القوافل

شكل ٩

(٢) السـودان فى عهـد بناة الاهرام

اتخذ ملوك العهد الطينى مدينة « أبيدوس » عاصمة لهم فى صعيد مصر ، وفى حوالى سنة ٢٨٠٠ ق٠م تحول ملوك مصـر نحو الشـمال فنقلوا عاصمتهم الى « ممفيس » (شكل ٦) ، على الضفة الغربية من النيل ، وعلى بعد ٢٤ ميلا جنوبى (القاهرة) الحالية ٠

وامتاز عهد ملوك ممفيس (من الأسرة الثالثة الى آخر السادسة) ببناء الأهرامات التى كان القصد الأول من بنائها هو أن تكون مقابر حصينة لملوكهم ، ونظرا لان المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ،اعتبرت الأهرامات أماكن مقدسة ، وبنيت بجوارها المعابد ليتمكن الناس مـن الصـلاة والترحم على الميت ٠

ويدل بناء الأهرام فى هذا العصر على قوة الملوك الذين بنوها وشدة بأسهم وعلى حسن نظام الحكومة فى عهدهم ٠ وليست عظمة البناء هى كل ، مايستوقف النظر ، فقد استلزم صنع السراديب الخفية والمخادع الداخلية وحساب الزوايا وتنسيق الاجزاء وتناسبها ولحم الأحجار علما كبيرا بقواعد البناء وهندسة العمارة ٠ يدل كل ذلك على ان المصريين بلغوا فى ذلك شأوا عظيما ،وعلى أنهم استكملوا كل العناصر الحضارية قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة ٠

ملوك ممفيس وعلاقتهم بالسودان :

كنا قد ذكرنا ان التجارة كانت قائمة على قدم وساق بين السودان ومصر منذ عصر ما قبل التاريخ ، ولما بدأ التاريخ فى مصر لم نجد فى عصر بناة الأهرام أى تأثير ثقافى بارز فى ثقافة السودان ٠فلم نجد فى مقابر القوم أى

نوع من الكتابة ، لدرجة ان الأثريين ، يذكرون ان الحضارة النوبية لهذا العصر، السست الا صور منحطة من الثقافة التى عرفت ،فى العهد الطينى •وقد عثر على آثار هذه الثقافة (ثقافة عصر بناة الاهرام)•فى بلاد النوبة فى جهات منفردة منها « جرف حسين » بالجبانة رقم ٧٧ وغيرها •(شكل ١٠)•

ويلاحظ ان مقابر هذا العصر كانت بيضية او مستطيلة الشكل ذات أركان مستديرة ، والجسم وضع فيها مضطجعا ومقرفصا على أحد جانبيه، فى اتجاهات غير منتظمة ،وغالبا ماتجد الجسم ملفوفا فى جلد ماعز أو حصير•

أما الأثاث الذى كان موضوعا مع الجسم فكان فى العادة يتألف من اوان من الفخار قليلة العدد ، وأهم انواعه : فخار سميك مصقول واونه أحمر ،وفخار ذو شريط أسود (يشبه الفخار الذى ذكرناه فى العصر الطينى غير أنه أكبر منه واقبح شكلا)• والم يوجد فى هذا العهد أدوات من الاحجرجر جلالانخوكا هىق قمى عخغ صضك شحخع لىقق همىلك صشحد الحجر ، كذلك كان الخرز والأشياء المصنوعة من المحار نادرة الوجود ولم يعثر من الآلات النحاسية ، الا على المخرز • أما الأدوات المصنوعة من العظم مثل أطراف السهام والابر ، ومقابض السكاكين والملاعق فكانت توجد بكثرة فى مقابر هذه الثقافة •

ويبدو أن مصر فى عهد زوسر من ملوك الأسرة الثالثة ، كان لها السيادة على الجزء الشمالى من النوبة • وقد جاء فى نقوش «لوحة المجاعة »او « لوحة سهيل» أن فيضان النيل تخلف سبع سنوات متتالية ،فانتشر القحط فى البلاد ، وعمتها المجاعة ، فنصح (أمحتب)للملك زوسر بتقديم القرابين للاله « خنوم » اله « الفتين » ، ذلك الاله الذى كان المصريون يعتقدون أنه المشرف على فيضان النيل • فأخذ النيل يرتفع بانتظام ، ولذلك وقف الملك على معبد «خنوم » جميع الاراضى الواقعة على ضفتى النيل ، بين

جزيرة سهيل وجزيرة ضرار . كما منح كهنة «خنوم» حق فرض ضريبة على صيد الأسماك والطيور ، وعلى العمل فى المحاجر ، وعلى سائر المنتجات الواردة من بلاد النوبة عن طريق « الفنتين » . وعلى أى حال كانت قبائل النوبة السفلى تقر بسيادة مصر عليها ، وتبعث برجالها الى مصر ليجندوا فى فرق الجيش .

أما أول حملة رسمية تاريخية على بلاد النوبة ، فكانت فى عهد الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة . وقد جاء ذكرها على حجر « بلرمو » ، الذى أرجعه الأثريون الى حوالى سنة ٢٩٠٠ ق.م ، حيث تمكنت الحملة من تخريب البلاد (١) ، واحضار سبعة آلاف أسير من الرجال والنساء ، ومائتى الف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة . ونعتقد أن هذه الحملة ، كانت الضربة القاضية على بقايا حضارة بلاد النوبة فى العصر الطينى . ونتيجة لهذه الحملة أصبح من المستطاع أن يرسل المصريون بضاعتهم بدون عائق الى الجنوب ، بل تمكنوا من استغلال محاجر الديوريت الواقعة على بعد ٧٠ كم شمال غرب «توشكى» (شكل ١٠) وقد عثر فى هذه المحاجر على أسماء ملوك مصريين كثيرين منهم : خوفو ، وساحورع ، وأسسى . وتدل شواهد الأحوال على ان ملوك الاسرة الرابعة ، كانوا يقطعون تماثيلهم من حجر الديوريت من هذه الجهة . ولا نزاع فى أن استيلال هذه المحاجر الواقعة فى صحراء بلاد النوبة ، وجلبها الى «توشكى» ثم الى مصر يدل على ان أهالى بلاد النوبة لم يكونوا محاربين . ولا غرابة فى أن أهل النوبة الفقراء لم يكن لديهم القوة ليقفوا أمام المصريين الأقوياء ، ولذلك كان من صالحهم أن يعيشوا فى سلام ومهادنة مع مصر وأن يعملوا على تنمية العلاقات الودية بينهم وبين المصريين .

---

(١) ثبت ان البلاد التى غزاها سنفرو هى بلاد واوات (انظر شكل ١٠)

النوبة السفلى

وهذا النشاط السلعي الذي كانت تسلكه مصر في بلاد النوبة السفلى، تدل عليه النقوش التي عثر عليها في « توماس »(شكل١٠) في عهد الملوك «سحورع »و «اسسى »و «بيبى الأول » .هذا وقد نقش عدد كبير من الموظفين أسماءهم وألقابهم على صخور «توماس» .وبعض هؤلاء الموظفين كانوا يعملون في عهد الأسرة السادسة «ومن المحتمل أنهم كانوا معروفين في «ألفنتين »وتلقى القاب هؤلاء الموظفين ضوءا على ماكان لهم من نشاط في بلاد النوبة . فنجد بعضهم كان يحمل كل منهما لقب « المشرف على الترجمة »، ولدينا اثنان من هؤلاء يحمل كل منهما لقب « المشرف على الجنود » .ومن المحتمل أن عملهما كان متصلا بالنشاط الحربي في الصحراء.

وفي عهد الأسرة السادسة أسعفتنا النقوش الأثرية بمعلومات ثمينة تكشف لنا النقاب عن صفحة جديدة من تاريخ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة ، وذلك أنه في هذا العهد ، أخذ الموظفون الذين قاموا ببعوث تجارية مع الجنود ، يتحدثون عن رحلاتهم الى الجنوب. ويوضحون علاقة بلاد النوبة بمصر . وتدل النقوش التي عثر عليها على أن حدود مصر في هذا العهد ، لم تتعد الشلال الأول .ويبرهن على ذلك نقشان هامان خلفهما الملك « مرنرع » في منطقة الشلال .والنقشان موحدان في كلماتهما وهي :

«ملك الوجه القبلي والبحري (مرنرع) محبوب (خنوم) رب الشلال ، السنة الثالثة ، الشهر الثاني من فصل الصيف ، اليوم الثامن والعشرون. تقدم أتى الملك بنفسه وعاد ،وقد وقف على ظهر الجبل ،وقبل أمراء«وارثت» و «واوات» الأرض بين يديه ، ومدحوه كثيرا (شكل ١١).

وهذا النقش يدل صراحة على تفتيش للحدود الجنوبية ،التي أتى اليها من بعيد الأمراء الأجانب من مختلف أنحاء البلاد النوبية ليقدموا لجلالة الملك خضوعهم وولاءهم ولا نزاع في ان هذا النقش خاص بالحدود .

وقد أخذت تظهر الأهمية البالغة لمراقبة الحدود عند (الفنتين) منذ منتصف عهد الأسرة السادسة ، وذلك عندما ظهرت أمامنا وظيفة «حارس باب الجنوب» فى ألقاب أمير المقاطعة .

وكان الوزير «بيو» فى منف فى نهاية عهد الملك «بيبى الثانى» من ملوك الأسرة السادسة «يلقب» المشرف على الباب الجنوبى والمشرف على الباب الشمالى لمصر» ومن مدلول هذه الألقاب نعلم أن الوظيفة التى نتحدث عنها الآن كان لها مكانة عظيمة فى شمال البلاد ، كما كان لها خطرها فى الجنوب . والا مراقبة الحدود الجنوبية ، كانت تلعب دورا هاما فى سياسة البلاد ، كما سيتضح ذلك جليا عند التحدث عن الحدود المصرية الجنوبية فى عهد الدولة الوسطى .

وتدل الأحوال على أن خط الحدود ، كان الوافد على مصر يراقب عنده ، وكذلك يراقب مايدخل من سلع الى بلاد النوبة . كما كان يعد المكان الرئيسى للتجارة الذاهبة الى الجنوب . أما الاقليم الذى خلفه فكان يعتبر مسرحا للتجارة ومن المحتمل أن الافراد الذين نقشوا أسماءهم على الصخور فى هذه الجهة ، قد لعبوا دورا رئيسيا فى سياسة مصر الجنوبية فى هذا الوقت والسواد الأعظم من كبار رجال القوم بحملات الى بلاد السودان كانوا من مواطنى (ألفنتين) هذه . وقد كشف الباحثون عن اسماء عدد كبير من هؤلاء الموظفين وسنقصر الكلام هنا على أهمهم :

١ — حرخوف : وقد عاش فى عهد كل من الملك مرنرع وبيبى الثانى ، وقبره فى ألفنتين . وقد قام هذا الأمير بثلاث حملات فى الجنوب ، فقام بالأولى والثانية بأمر من الملك مرنرع ، وقام بالثالثة بأمر من الملك بيبى الثانى . وهذه الحملات ان دلت على شىء فمن الممكن ان يستنتج منها أنه قد

حدث بعض التغير فى العلاقات الودية التى كانت سائدة فى عهد الملك مرنرع، ففى الحملة الأولى قام حرخوف مع والده الى بلاد «يام» لارتياد الطريق الموصلة اليها ، وقد استغرقت الرحلة سبعة شهور . وقد أحضر معه عند عودته كل أنواع المحاصيل ، ولم يذكر عن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة أية كلمة .

وفى الرحلة الثانية ذهب بمفرده عن طريق ألفنتين الى أرثت وماخر وترس . ويلوح لنا أن الغرض من هذه الرحلة كان كشف مجاهل هذه الجهات . (شكل ١١) .

وفى الرحلة الثالثة — وهى أهمها — فقد تحاشى حرخوف المرور فى شمال بلاد النوبة ، بل سار عن طريق الواحات كركر ودنقل . وفى طريق عودته تقابل مع أمير ارثت وواوات ، وقد تصافحا معا .

٢ — بيبى نخت . وهو موظف كبير فى عهد الملك قد أرسله فى حملة

عدائية الى بلاد النوبة لم نسمع من قبل بمثلها فى النقوش التى قبل الملك « بيبى نخت » ومن المحتمل ان ذلك يرجع الى ظهور مقاومة مسلحة من جانب النوبيين للمصريين ، الذين أخذوا يستهينون بالأهالى بعد ان اتضح لهم نجاح حملات حرخوف ، وعودته بكثير من المحاصيل المحلية المرغوب فيها كثيرا فى مصر .

٣ — أونى . وهو أحد كبار الموظفين الذين عاصروا ملوكا كثيرين . وقد عثر على قبره فى العرابة المدفونة . وقد أرسله الملك مرنرع الى محاجر « أبهات » فى بلاد النوبة ليحضر تابوتا مع غطاء ، بالاضافة الى هرم صغيرة ثمين وفاخر ، لأجل هرم مرنرع . كما أرسله نفس الملك لتعميق خمس قنوات فى الجنوب ، ولصنع ثلاث سفن واسعة وخمس سفن نقل من سنط بلاد واوات . فى حين أن زعماء بلاد أرثت ، واوات ، يام ، المزاوى

النوبة العليا

وادي حلفا
بوهن
الشلال الثاني
سمنة
قمة
العمارة
صاي
سيسبي
دلقو
جزيرة تمبوس
الشلال الثالث
كرمة
جزيرة أرقو
الكوة
دنقلا العجوز
الشلال الرابع
جبل برقل
نوري
الكرو
كورتي
الشلال الخامس
بربر
عطبرة
مروي القديمة

يوردون الخشب لهذا الغرض ويقول هو عن نفسه : « وقد انجزت كل ذلك فى سنة واحدة ، وأنزلت السفن فى الماء محملة بالجرانيت بكثرة لأجل هرم مرنرع » (شكل ١١)

ولا نزاع فى أن وجـود هؤلاء العظماء فى ألفنتين قـد أكسبها ثروة طائلة ، واضفى عليها بهاء ورونقا وعظمة حافظت عليها فى كل عصـور التاريخ . ولا تزال من أجل ذلك حتى يومنا مهبط الزوار من كل اقطار العالم ، لما فيها من آثار وجو ممتع فى أثناء الشتاء .

على ان النشاط الذى ظهر فى بلاد النوبة بصفة جدية ، وكذلك ارسال الحملات التأديبية لم يستمر طويلا ، وذلك لأن الوهن والضعف وسوء الحكم فى مصر كان قد أخذ يتفشى فى داخلية البلاد التى مزقها الحكم الاقطاعى ، الذى تجلى بابشع مظاهره فى أواخر عهد الأسـرة السادسة مما أدى الى القضاء على كل نشـاط سياسى خارج البلاد وأصبحت العلاقات بعد ذلك شبه معدومة .

المعاملات التجارية بين مصر والنوبة فى هذا العهد :

الظاهر أن المعاملات بين مصر وبلاد النوبة قـد ظهرت عند ما كانت العلاقات ودية بين البلدين ، وكان قوامها المنفعة المتبادلة . فكان المصرى يدفع للمواطن النوبى أجرة على الأعمال التى يؤديها له كما كان يشترى منه البضائع الغفل . وعندما ساءت العلاقة بين البلدين ، كان لزاما على النوبى أن يدفع جزية تدعى (تنجو) لمرور تجارته عند الحدود .

وكانت المواد التى تسترعى مصر بى هذا العهد فى تلك البلاد ، المواد التى لا توجد فى مصر ، أو التى كانت توجد بقلة بحيث لا تفى بحاجة البلاد . وقد عدد لنا حرخوف عند التحدث عن رحلته الثالثة فى مجاهل بلاد النوبة المحاصيل

التى أحضرها فيقول : « وعدت الى مصر مع ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس وزيت (حنكو) وزيت (ثاث) وجلود الفهود وسن الفيل وكل محاصيل جميلة » • ومن المحتمل أن الأبنوس والعاج كانا يجلبان من بلاد النوبة فى العهد الطيبى الى مصر • ومن المحتمل كذلك أن جلد الفيل كان يجلب من بلاد النوبة الى مصر منذ ذلك العهد المبكر ، وان كان لم يظهر استيراده بصورة محققة الا فى تلك الفترة •

كذلك استوردت مصر بعض الأحجار من بلاد النوبة ، وهذه الأحجار وبخاصة الديوريت كانت مرغوبا فيها فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة • وكانت المنطقة المشهورة فى شمال غربى توشكى مركزا لانتاج هذا النوع من الأحجار •

كذلك استوردت مصر بعض أنواع الخشب من النوبة ، وقد سبق أن عرفنا أن الملك مرنرع عندما أرسل الأمير (أونى) لحفر القنوات الخمس كلفه ببناء خمس سفن نقل مصنوعة من السنط المجلوب من « واوات » ومن هذا نرى أن بلاد النوبة كان بها خشب لبناء السفن •

وهذه الأشياء لم تكن وفيرة فى وادى النيل وحده ، بل كانت فى وديان الصحراء نفسها ، ولا أدل على ذلك من إن وديان الصحراء كانت عامرة بالأخشاب حتى القرن الماضى ، كما جاء فى وصف الرحالة بورخارت (١) للصحراء الغربية ، اذ يقول مثلا فى وصف وادى « أم جات » الواقع بالقرب من وادى العلاقى : « لم يصادفنا حتى الآن واد مررنا به ، فيه أشجار السنط الكثيفة بهذه الدرجة التى وجدناها فى هذا الوادى » •

وعلى ذلك فانه عندما يفكر الانسان فى أن الوديان كانت ذات أشجار

(1) Burchharde Travels in Nabiap. 146

باسقة يانعة ، فإنه ليس من المستحيل أنه كانت توجد فى الصحراء الواقعة غربى بلاد النوبة ، أو فى شمال السودان فيلة ترتع فى الأدغال التى فيها .

وكان خشب بلاد النوبة من السنط ولذلك لم يقم بالدور الذى قام به خشب لبنان فى مصر .

ومن الغريب أن الذهب كان فيما بعد ، يعد أهم مادة تستورد من بلاد النوبة ، لم يأت ذكره فى نقوش الدولة القديمة ، وبالتالى أفاد ازدهار التجارة أهالى السودان ، فاستفادت القبائل الساكنة فى شمال السودان خاصة ، فبواسطة التجارة استطاعوا أن يتصلوا بالحضارة المصرية القديمة اتصالا وثيقا .

الفصل الثالث

السودان فى عهد الدولة الوسطى

٢١٦٠ — ١٥٨٠ ق٠م

حالة بلاد النوبة منذ نهاية الأسرة السادسة الفرعونية حتى قيام الدولة الوسطى

أخذت مصر فى الضعف فى أواخر عهد الملك بيبى الثانى آخر الأسرة السادسة بسبب انتشار نظام الاقطاع وبسبب ازدياد نفوذ الجند المرتزقة ، وقد تحرجت العلاقة بين مصر وبلاد النوبة لدرجة عظيمة فى هذا العهد ، ولاحظنا هذا التحرج منذ حملات حرخوف وبيبى نخت ٠

أما بخصوص بلاد النوبة نفسها فقد هاجرت اليها جماعات من جنس زنجى ، وذلك فى نهاية عهد الأسرة السادسة المصرية ، وهؤلاء القوم كانوا فى الأصل رعاة ماشية يشبهون قبيلة البقارة الحالية فى كردفان ، ولا يمكننا أن نحكم على وجه التأكيد من أين جاء هؤلاء الحكام الجدد ، فبعض الاثريين يرجع ان موطنهم الأصلى فى الجنوب الشرقى من البقعة التى ينبع منها النيل الأزرق والعطبرة ، وبعضهم يرى أن موطنهم الأصلى من الجنوب الغربى من كردفان ٠ ولا يزال الغموض يحيط بهذا الجنس وأصله ٠ وليس لدينا أى معلومات كتابية تميط اللثام عنه ٠

والمهم أن هؤلاء القوم المهاجرين ، بمجرد اختلاطهم بسكان النوبة الأصليين كونوا لأنفسهم ثقافة جديدة ، امتصت جذورها الكثير من الثقافة النوبية القديمة وبخاصة ، صناعة الفخار ، ولكنها على وجه عام كانت ثقافة

قائمة بذاتها ، وقد احتلت لنفسها مكانة عالية فى الحياة القومية ، وإذا ما قورنت بثقافة الدولة الوسطى المصرية ، عدت ساذجة بالنسبة اليها ويمكن أن تعد بمثابة الثقافة النحاسية الحجرية المتأخرة . ولم تأخذ من المنتجات الثقافية الأجنبية الا الشىء الضئيل جدا ، وذلك لأن الاهالى كانوا شديدى الفقر .

وأثار هذا العهد وجدت فى جبانات : «الدكة» و «عنيبة» و «فرس» (شكل ١١) . وتمتاز مقابر هذا العصر بأن مبانيها العلوية التى على سطح الأرض مقامة من الحجر الجيرى الأبيض فوق حفرة صغيرة مستديرة الشكل ، أما الأثاث الجنازى فكان يحتوى على أوان من الفخار الأحمر ، ذى الفوهة السوداء . وفخار أحمر فوهته مخزوزة وأطباق عليها حزوز بيضاء ، تذكرنا بالأطباق النوبية الخاصة بالعهد السابق ، غير أنها تختلف عنها من حيث الصناعة والنماذج ، ووجدت المرايا المصنوعة من النحاس . ولم يعثر على المحار الخاص بحفظ مواد الزينة الا قليلا . ووجد عدد عظيم من الحلى مؤلف من قلائد من الخرز . ويدل فحص الفخار الخاص بهذا العصر ، على أنه لم يتم فى بلاد النوبة ، بل انه ظهر وانتشر فى البلاد بعد هجرة العناصر الجديدة اليها . ونخص بالذكر الأوانى الفخارية المحزوزة التى تعد من أحسن الأشغال ، التى ظهرت فى بلاد النوبة عامة .

بداية الدولة الوسطى :

وفى أواخر عهد الأسرة العاشرة بدأ نجم مدينة طيبة (الأقصر الآن) يلمع ، فظهر بهذه المدينة أمراء أقوياء . استقلوا بالبلاد المصرية الممتدة من طيبة الى الشلال ، واتخذوا لأنفسهم لقب (حماة باب مصر الجنوبى) ، ثم أخذوا ينتزعون البلاد تدريجيا ، حتى انتهى الأمر بقيام الأسرة الحادية عشرة ، التى يعدها المؤرخون بدء الدولة الوسطى .

اتخذ ملوك الأسرة الحادية عشرة مدينة طيبة عاصمة لهم ، وأعادوا البلاد الى ما كانت عليه من وحدة وارتباط ، وحكمت هذه الأسرة البلاد مئة وستين سنة ، تعرضت البلاد بعدها الى غزو أجنبي ، فهب لملاقاته أحد أمراء طيبة « أمنمحات » وبعد ان تمكن من طرد العدو أنشأ الأسرة الثانية عشرة ، وقد تمكن هذا الملك من القضاء على نفوذ الأسرة بالدهاء تارة وبتقديم الهدايا ومنح الهبات والعطايا تارة أخرى .

ويعد عصر الأسرة الثانية عشرة أزهى عصور الدولة الوسطى ، اذ انتشر فيه الأمن وساد النظام ، وتقدمت الزراعة بفضل عناية ملوكها الذين آثروا صالح الشعب على بناء الأهرام الضخمة ، وفي هذا العصر أحييت العلوم والفنون ، وشيدت المباني ونشطت التجارة بين مصر والخارج .

ملوك الدولة الوسطى والنوبة : وقد أهتم أمنمحات الأول مؤسس الأسرة ١٢ بمد نفوذه الى بلاد النوبة ، بعد ان كانت الحملات قد توقفت عنها منذ الأسرة السادسة . ويميل الاستاذ (ينكر) الى أن أم هذا الملك كانت من اصل نوبي فيقول : « ان طراز محيا الملك الجديد يحتمل انه من أصل نوبي وبخاصة ان عظم الوجنتين فيه ما يدل على انه من أم نوبية ولدينا نقوش عدة تؤكد لنا ذلك ، ونخص بالذكر منها أولا تلميحه بذلك في تعاليمه المنسوبة اليه وهي التي ألقى فيها على ابنه دروسا في الحياة فيقول : « قد أذللت السود ، واصطدت التماسيح وقهرت أهل واوات وأسرت قوم المزوي » (شكل ١١) كما وجد له نقش مختصر على صخرة بالقرب من (كورسكو) (شكل ١١) يدل على وصول جيوشه الى هذه البقعة في السنة التاسعة والعشرين من حكمه . والجملة الوحيدة التي تهمنا في هذا النقش هي :

« لقد أتينا الواوات لقهرها » .وتدل هذه الجملة على ان العلاقات بين البلدين لم تكن ودية .

ويقال ان هذا الملك قد اسس محطة تجارية على الجانب الشرقى من النيل مكان كرمة الحالية ، وبنى قلعة هناك سميت« أسوار أمنمحيت»أو « اينبو أمنمحيت »ولاتزال بقاياها موجودة ويسميها الأهالى «الدفوفة» وهى عبارة عن كومة من الطوب الأخضر (اللبن) على علو خمسين قدما ، وفوقها بنيت مخازن ومكاتب لمندوب الحكومة المصرية ، الذين كانوا ينظمون التجارة بين مصر والسودان . وكانت هناك حامية من العساكر المصريين لكى يحموا هذه المحطة خشية هجوم الأهالى . وكانت القلعة نواة لمدينة تجارية مزدهرة استمرت أكثر من ٣٠٠ عام .

ولم تكن قلعة أمنمحيت مجرد حصن فقط أو محطة تجارية فحسب، بل كانت بمثابة الشعاع لنشر الحضارة فى بلاد كوش ،وهى البلاد التى تقع جنوب الشلال الثانى (شكل ١١) وكانت تمر عليها البضائع الثمينة من الجنوب مثل العاج وريش النعام وبيضه وجلود النمرة والرقيق ،وكذلك كان الذهب يجلب من جبال أثيوبيا .

وبمرور الزمن نشأت صناعة بداخل المدينة وخاصة صناعة الخزف ، وساعد على اجادة الصنع تواجد المصريين القاطنين فى البلد .وخزف كرمة أجمل خزف عرف فى وادى النيل منذ فجر التاريخ ، وبرعوا فى نحت حجارة البناء حتى فاقوا عمال مصر نفسها .

ولما توفى « أمنمحات الأول » سنة ١٩٧٠ ق.م تولى بعده ابنه سنوسرت الأول وقد سار سيرة والده فى الفتح ، فتوغلت جيوشه فى بلاد النوبة حتى وصلت الى بلاد « كوش »وكان هم المصرى فى هذه البلاد هو

استغلال مواردها وبخاصة مناجم الذهب التى كانت تزخر بها تلك الجهات وكان على المصرى الحصول على ذلك أن يستغل النوبى بطريقة منتظمة ، فيستولى على ما لديه من مواد غفل باعتبارها ضريبة يدفعها له أو كان يعمل بالتعاون معه لاستخراجها . أو على الاقل كان لايمنع من الحصول على هذه المنتجات .

وكان السكان الوطنيون فى هذا العصر قد وقفوا فى وجه أطماع المصريين بقوة وبأس شديدين ، وذلك لأنهم وجدوا فى أطماع المصريين خطرا يهدد ستقلالهم ، وخشوا من تسلط المصريين عليهم والقضاء على حريتهم . وتدل الأحوال على أن النوبيين دفعوا الجزية للمصريين فى عهد الاسرة الحادية عشرة . كما كانوا يوردون لهم الاسلع أو يبيعونها تحت الضغط المصرى . ومن الجائز أنه قد حدثت أعمال غير مرضية من كلا الجانبين، مما أدى الى سوء التفاهم واضطراب العلاقات بين البلدين ، ولا أدل على ذلك من أننا لم نجد فى هذا الوقت تبادلا تجاريا بين البلدين يسير على طريق الود والمهادنة ، وعلى ذلك لم يكن لمصر أمام هذا الموقف الا ان تحتل بلاد النوبة احتلالا عسكريا ليؤمنوا الطرق التى تمكنهم من تصريف تجارتهم .

وتعد الحملة التى قام بها سنوسرت الأول حتى الشلال الثالث من أهم الحملات التى قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة . وكان الغرض منها اخضاع قبائل السودان وتثبيت حدود مصر الجنوبية الى نقطة تبعد ٣٥٠ كيلو مترا من جنوبى وادى حلفا .

وتدل شواهد الأحوال على ان المصريين قد استعملوا العسف فى بلاد النوبة ،فيقول سنوسرت الأول : « ان كل نوبى سيدفع الجزية بمثابة

خادم •• وعلى كل نوبى ان يسير سيرا حسنا فى تقديم محصولاته لمصر»(١)

ويظهر أن سياسية مصر فى هذه البلاد كانت ناجحة ،ذلك لأننا لم نسمع عن ارسال حملات اليها فى عهد كل من أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى، كما اننا لاحظنا أن التجارة نشطت فى عهدهما ، وازدهرت بين مصر وبلاد النوبة •

وتدل شواهد الأحوال على أنه فى تلك الفترة قد تم نظام الحاميات ، كما تم بناؤها ونستدل على ذلك من نقش وجد على صخرة فى أسوان مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من عهد أمنمحات الثانى خاص بتفتيش هذه الحصون •

لكن هذا الهدوء الذى شمل البلاد ، مالبث أن أعقبه اضطرابات وهجمات على القوافل فى السنة الثامنة من عهد سنوسرت الثالث، فاضطر هذا الفرعون لارسال حملة الى بلاد النوبة • ومن المحتمل أن سبب قيام هذه الهجمات من جانب النوبيين يرجع الى الخمول العسكرى الذى ساد البلاد فى عهد هذين الملكين السابقين •وهو الذى شجع السكان فى السودان على القيام بالهجرة فى البلاد من الجزء الجنوبى من السودان ، مما أدى الى طرد قبائل أخرى امامها نحو الشمال • وكان لزاما على سنوسرت الثالث للقيام بحملته على المغيرين أن يكون لديه أسطول عظيم لنقل الجنود لاعدادهم بالغذاء والمهمات باستمرار، ولما كانت صخور الشلال تعترض مرور هذا الأسطول ، الا فى زمن الفيضان •

ولما كانت القنوات التى حفرها الأمير : أونى فى عهد الأسرة السادسة

---

(١) عثر على اللوحة التى عليها هذا النقش فى وادى الهودى على مسافة ٢٨ كم فى الجنوب الشرقى من اسوان (شكل ( )

قد هدمت ولم تعد صالحة لما يتطلبه الموقف ، اضطر هذا الفرعون الى اعادة تعميق هذه القنوات حتى يمكن تسيير سفنه وتجنب الشلال ، وقد حفرت هذه القنوات حفرا جيدا ، حتى انها ظلت مستعملة بعد ذلك حوالى من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ سنة ، وكان من نتائج هذه الحملة أن تقدم المصريون فى زحفهم جنوبا نحو سبعة وثلاثين ميلا جنوبى وادى حلفا ، ولكنهم كانوا لا يزالون بعيدين عن (كرمة) التى كانت مقر الحكم لهذه الجهات منذ عهد الملك « سنوسرت الأول » الذى وصلت فتوحه الى الشلال الرابع (شكل ١١)

ولقد نصب سنوسرت الثالث لوحا فى بلدة سمنة عرف هذا باسم « لوحة الحدود » لمنع هجرة أهل السودان لمصر (شكل ١١) وكتب على اللوح ما نصه : هذا حد مصر الجنوبى الذى عين فى السنة الثامنة من حكم الملك سنوسرت الثالث المخلد الذكر ، فلا يجوز لأحد من السودان أن يتعداه الا فى سفن تقل البقر والماعز والحمير من بلادهم » ، كما عثر على لوح آخر لهذا الملك بالقرب من سمنة وجد عليه ما يفهم منه أن الملك المذكور وضع هذا الحجر فى السنة السادسة عشرة من حكمه ، فجعله حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وانه أمر أن ينصب له تمثال فى تلك الجهة ، فكان له ما أراد

ويظهر أن بلاد النوبة قد تطلبت من هذا الفرعون غزوات عدة قبل أن تخضع تماما للحكم المصرى . ذلك لأن اللواحات التى وجدت فى سمنة تدل على انه بعد الحملة التى أرسلها سنة ١٦ من حكمه ، بنى حصنا قويا عند سمنة كما بنى فى الجهة الشرقية من النهر قبالة سمنة ، قلعة أخرى صغيرة تعرف باسم (قمة) لذلك كان من الصعب مرور أى جيش فى النهر من هذه الجهة ، وخرائب هاتين القلعتين لا تزال باقية الى اليوم . وكان فى كل من الحصنين السابقين معبد . ففى سمنة كان معبد الاله « ددون »

وهو الاله المحلى لهذه الجهة . وفى قمة معبد للاله « خنوم » معبود أسوان وألفنتين . وفى هذين المعبدين احتفل سنوسرت احتفالا عظيما ابتهاجا بانتصاراته على أهل الجنوب . وهذه الأعياد قد بقيت ذكراها الى أزمان بعيدة ، حتى أن تحتمس الثالث ــ فى عهد الدولة الحديثة ــ عندما أعاد بناء معبد سلفه بعد ٣٧٠ سنة ، احيا الاحتفال بهذا العيد ، بل آله الملك سنوسرت الثالث وجعله ثالث آلهة الحدود التى أسسها .

وتعد نقوش لوحة سمنة التى سجلت لنا حملة السنة السادسة عشرة من حكم هذا الفرعون من أهم النقوش التى وصلت الينا من هذا العصر ، ولا تنحصر أهميتها فى أنها حددت لنا التخوم المصرية فى هذا العهد فى بلاد النوبة ، بل ان جملها المنمقة تعد بحق من أهم ما تركه لنا قدماء المصريين فى كل عصورهم ، اذ يتمثل لنا فيها قوة ارادة هذا الفرعون ، وشدة حرصه على مجد بلاده ، واذ كاؤه نار الغيرة فى نفوس أخلافه للمحافظة على فتوحاته والدفع عن حدودها بالنفس والنفيس .

وعلى كل حال فان سنوسرت الثالث قد قام بحروب عظيمة فى السودان لما كان من أهلها من عبث بالأمن ومناهضة المصريين . ولا تقل الحملات التى قام بها على حسب أحدث الكشوف ، التى قامت فى الأزمان الاخيرة عن أربع حملات . وبعد انتهاء عهد هذا الفرعون يظهر أن البلاد فى عهد من جاء بعده من فراعنة هذه الأسرة ، بل وفراعنة الأسرة ١٣ ، كانت فى سلام ، وكانت بلاد النوبة مرتبطة بمصر ارتباطا وثيقا من حيث تبادل التجارة . .

وتدل أعمال الحفر على أنه فى عهد أمنمحات الثالث حدث فى (كرمة) اصلاح فى سور « أينبو أمنمحات » على يد موظف مصرى ، مما يدل على

أنه فى هذا العهد كانت وكالة التجارة للحكومة محمية ، وأن التجارة كانت مزدهرة بين السودان ومصر ، ولم يقف الأمر عند حد ازدهار التجارة فحسب ، بل ان اتساع رقعة مصر نحو السودان ، أدى الى تمازج الأفكار بين البلدين . ومن أهم الأفكار التى جلبت الى بلاد كوش هى المعتقدات الدينية المصرية ، فأحتلت عبادة الاله « آمون رع » مكانة عظمى عند الناس فى تلك البلاد ، ولعلنا نذكر اسم الملك السودانى « بيعنخى ميرى آمون » ومعناها بيعنخى حبيب آمون .

حاميات السودان المصرية للمحافظة على طرق التجارة :

تكلمنا عن الحملات التى قام بها ملوك الدولة الوسطى فى السودان وما قاموا به من جهود فى العمل على استتباب الأمن والسلام بين البلدين مما أدى فى نهاية الامر الى اقامة الحصون والمعاقل فى جهات عدة لتأمين مراكزهم التجارية فى هذا الاقليم المترامى الأطراف من الشلال الأول حتى الشلال الرابع .

ولدينا قائمة بالحصون التى أقامها الفراعنة فى هذه البلاد يرجع تاريخ اقامتها الاى حوالى مائة عام قبل بداية الأسرة الثامنة عشرة عثر عليه فى طيبة ويبلغ عدد الحصون التى ذكرت سبعة عشر حصنا لم نتحققها جميعا . وأهم هذه الحصون هى : سمنة وقمة وورنرتى وبهين وعنيبه (معـام) والفنتين (أبو) وفرس (شكل ١١) . ويتضح من فحص الوثيقة التى عثر عليها أسماء هذه الحصون أنها كانت ذات وظيفتين : كانت بمثابة سد منيع امام أى اعتداء حربى منتظر ، وكذلك كانت حاجزا ضد الضغط المستمر الذى كان يهدد مصر وأملاكها ، نتيجة لغارات أهل السودان المستمرة ، ومن جهة أخرى كانت تستعمل بمثابة مخاط تجارية .

وهذه الحصون كانت تقام عادة فى وسط الوديان بالقرب من النهر • وبذلك تكون الرابطة مع الحصون الأخرى النوبية التى تؤدى الى الاتصالات مع البلاد المصرية نفسها •

ولما كانت الرابطة بين الحصون بطريقة الماء ليست سهلة فى بلاد النوبة العليا كما هى الحال فى بلاد النوبة السفلى ، فان كل حصن على وجه عام كان يعتمد على نفسه ولذلك أقيمت الحصون بطريقة تجعل كل منها يحتوى على حامية صغيرة تصد غائلة الهجوم المفاجىء وقد كشف البحث فى فرس عن حصن من حصون الوديان ، ونلاحظ أن النهر قد غير مجراه ، فبعد الحصن بعض الشىء عن النهر ، ويمكن تفقد هذا الحصن من وجهتين : فيوجد فى داخل المبنى على طول امتداده فضاء كبير على هيئة مربع ، وبجانب ذلك ميناء نهرية ، ليست بعيدة عن النهر ومحمية بالجدران • ومن هذين العنصرين يتألف الحصن على هيئة مستطيل أبعاده طويلة ، وضلعه الطويل محاذ للنهر • ويلاحظ أن أقوى التحصينات يقع فى ضلع الحصن المطل على اليابس •

أما الحصون الجبلية التى كانت توجد فى جهة الشلال فقط فان السهل كان العامل الفاصل فى تكوين الحصن وفى كيفية اقامته • وكان على المهاجم فى هذه الحالة لاجل ان يستغل السهل ليصل الى سطح جدار الحصن ، ان يتسلق عقبات ، كما كان عليه أن يصعد مرتفعات عمودية ، والا فان الميزة الاستراتيجية للحصن تصبح على العكس لاقيمة لها • وكان بكل حصن من الحصون معبد ومخزن غلات وبيت مال •

أما من حيث ثقافة بلاد النوبة السفلى فى هذا العصر ، فمن الجائز انه منذ عهد الدولة الوسطى قد وجدت أشياء كمالية فى القبور بكثرة بعض الشىء

اذ قد وجدت مرايا من النحاس ، ولكن الخناجر المصرية البحتة المصنوعة من البرنز ، قد وجدت فى المقابر النوبية ببلدة عنيبة أولا ، فى بداية الدولة الوسطى ، وتوجد كذلك أسلحة فى مقابر هذا العهد ولكنها نادرة •

ثقـافة كرمة :

فى الوقت الذى كانت تسود النوبة السفلى ثقافة متأثرة الى حد كبير بالثقافة المصرية نتيجة لاختلاط سكان البلدين ، كانت تزدهر فى بلاد النوبة العليا ثقافة أخرى ، وذلك ان الأستاذ رزنر عثر فى بلدة «كرمة» شمال جزيرة « أرقو » مباشرة جنوب الشلال الثالث على جبانة وطنية ، وعلى آثار مستودع تجارى ، وقال ان أهل هذه الثقافة ، التى يرجع تاريخهامن عهد الدولة الوسطى الى قيام الدولة الحديثة : (انهم ليسوا زنوجا بل ينسبون الى مجموعة سكان شمال افريقية ، ويحتمل ان يكون اللوبيون فرعا منهم ،هذا الجنس يتميز بالأنف المفرطح وتقاطيع بارزة تعادل الميزات الزنجية الخاصة بالهياكل العظمية النوبية ، واما المقابر المتاخرة فى هذا العصر فيلاحظ أن السكان أصبحوا مختلطى الجنس) •

وعلى ذلك ينبغى أن ينظر الى سكان كرمة فى هذه الفترة كما ينظرعلى وجه التقريب الى سكان قرية أم درمان الحالية • حيث يجد فيها الانسان الآن كل الأجناس التى تسكن أعالى وادى النيل •

وكانت المقابر التى كشفت فى كرمة فى صورة تل مستدير الشكل يحيط بها لوحات من الحجر الرملى ، ويوجد فى داخلها مبنى مؤلف من جدران من اللبنات قد أقيم فى وسط هذا المبنى دهليز ،يمتدمن الشرق الى الغرب ويبلغ عرضه حوالى مترين •ومن هذا الدهليز يتفرع شمالا وجنوبا حتى محيط دائرة هذه الجبانة ،عدة جدران متوازية تقطعها جدران أخرى

فى نقطة متعددة مرتبطة بعضها ببعض ومن ذلك يتكون فى كل من الجزء الشمالى والجنوبى عدة حجرات صغيرة تعرف عليها الأستاذ رزنر ، بأنها مقابر . وفى وسط هذا الدهليز تجد بابا لحجرة أمامية مسقفة بسقف مقبب ، وهى أكبر حجرة فى كل هذه المؤسسة .

ولا نزاع فى أن الشخص ، الذى دفن فى هذه الحجرة كان أميرا وبجانبه كانت تضطجع زوجته على سرير من الخشب ، وعلى رقعة الحجرة وجد رجال ونساء قد دفنوا انفسهم بحياء طوعا أو كرها مع الأمير وزوجته . ويبلغ عدد هؤلاء حوالى مائة شخص . هذا وتقدم لنا الأشياء التى كانت توضع مع المتوفى فى قبره لاستعماله اليومى فى عالم الآخرة «فى كرمة» لمحة عن ثقافة بلادالنوبة العليا فى هذا العهد . فبعض المحتويات قد صنع بدون شك فى نفس بلاد النوبة ، وبعضها تأثر كثيرا فى صنعه بالطابع المصرى ، حتى كان من الصعب أن يميز بين النوعين . وبخاصة الأباريق والطسوت وأطباق الأكل والشرب والمسوح . وهى مصنوعة فى مصانع فخار يدوى . وأشكال الأدوات التى وجدت فى كرمة . تؤلف مجموعة منقطعة النظير فى كل من مصر وبلاد النوبة .

ولدينا ايضا من الصناعات الوطنية بوجه خاص الأثاث المصنوع من النجارة الدقيقة كالأسرة والكراسى والمخدات والتوابيت . يضاف الى ذلك الأشياء المصنوعة من الجلد والتى منها الأحزمة والمبدعات الجميلة للسيدات العذارى ، والاحذية وأغطية وأربطة الأسرة والكراسى والشبابيك وعلاقات للاوانى الفخارية .

أما المصنوعات المعدنية فنجد أن الصانع كان يصوغ أدوات الزينة الجميلة ، التى وجد منها الكثير ، و نخص بالذكر الأساور والأقراط وقطع الحلى الاخرى ، والنحاس الذى كانت مادته فى نفس البلاد ، فكان يصنع منه أنواع الآلات مثل السكاكين والموسيات . و لانعلم تمام العلم اذا كانت الخناجر — وهى السلاح الوحيد الذى وجد فى مقابر النوبة فى هذه الفترة من الحاصلات المحلية أو جلبت الى مصر .

وتمتاز مصنوعات كرمة بما تنتجه من الزخارف المصنوعة من الميكا ، وهذه المادة قد وجدت فى مصر منذ عصر ما قبل التاريخ ، وقد وجدت المرايا من الميكا فى العهد العتيق فى بلاد النوبة . وأهم ما يلفت النظر فى استعمال هذه المادة فى كرمة هو استعمالها زينة فى صنع القبعات المصنوعة من الجلد التى خيطت فيها قطع من هذه المادة ذات أشكال مختلفة تمثل الزراق والطيور والأزهار الصغيرة ، وأشكال هندسية أخرى منوعة، وتجد مثل هذه الأشكال مصنوعة من سن الفيل فى صور حيوانات مثل الثعلب والنعام والصقور مطعمة فى خشب الأسرة ، ولا نزاع فى ان جزءا عظيما من الخرز والتعاويذ التى وجدت فى هذه الجهة هى من شغل كرمة .

مقارنة بين ثقافتى النوبة السفلى وكرمة :

مما سبق نجد ان لدينا ثقافتين منفصلة احداهما عن الأخرى انفصالا تاما ، وكلاهما ينتسب الى عصر النحاس المتأخر وهما متفرعتان من الثقافة الافريقية وقد انفصل كل منهما عن الآخر منذ العصور الأولى ، ونمت كل منهما على حدة وبقيت كل منهما لا تؤثر على الأخرى كما يقول بعض المؤرخين . ولكن الأستاذ « ينكر » يؤكد أن ثقافة النوبة السفلى ، قد تأثرت بثقافة كرمة . فيوجد بين الثقافتين رابطة جنسية تربط بعضهما ببعض ، هذا فضلا عن

أن كلا من الفريقين كان يفلح الأرض ويرعى الماشية . كما نجد تشابها بينهما من حيث الملبس ، وبخاصة الأحزمة المزينة بالخرز ، وكذلك من جهة المحاصيل اليدوية ، فهى مشاعة بينهما ولكن نجد فروعا ضخمة من ناحية مؤسسات المقابر ، التى تتشابه جميعا فى الظاهر . اذ نجدها كلها على هيئة كومة مستديرة ، وكذلك تختلف فى عادة الدفن ، اذ كانت العادة فى كرمة ، أن يدفن مع الرئيس ، عدد عظيم من الناس المذبوحين ، ومعهم أدوات زينة خاصة . ولكن فى ثقافة النوبة السفلى فى هذا العهد كان صاحب المقبرة يدفن وحده . ويلاحظ أنه لم توجد قطع فنية كالتماثيل وغيرها من الصناعة النوبية الوطنية ، بل كادت تكون معدومة فى كرمة . اما فى مجموعة النوبة السفلى ، فلدينا جمع غفير من التماثيل الصغيرة للرجال والنساء .

أما الصور التى فى المناظر ، فنجد فى كرمة أحيانا صورا فخمة مطعمة بسن الفيل والميكا والخشب والجلد . وفى المجموعة الثانية « لدينا صور مختلفة عن السابقة من حيث الأسلوب اختلافا تاما رسمت على أوان من الفخار ، صور منحوتة لرجال وحيوانات ، وهى تذكرنا بالصور التى كانت ترسم على جدران الأوانى المصرية ، ما قبل التاريخ . يضاف الى ذلك بعض الاختلافات فى الملبس ، اذ نجد فى كرمة القوم يلبسون القبعة مصنوعة من الجلد والمزينة بقطع من الميكا ، عليها صور مختلفة ، ولا نجد فى كرمة ما نجده من خواص الثقافة الأخرى ، وأعنى بذلك الأقراط وأساور السواعد المصنوعة من أصداف البحر . وخلاصة القول ، أن مجموعة الأشياء التى أنتجتها حفائر كرمة ، تؤلف مجموعة أثرية لها علاقة ظاهرة جلية من جهة بمجموعة الدول الوسطى المصرية

ومن جهة أخرى لها علاقة أقل ارتباطا بمجموعة بلاد النوبة الأثرية ، التى فى نفس العهد ، غير أن مجموعة ثقافة كرمة فى حد ذاتها تعد نسيجا وحدها . فالصبغة الخاصة بالمحاصيل الفنية والصناعية ، التى وجدت فى المقابر تفسر بطبيعة الحال وبكل بساطة ، صبغة الموقع الجغرافى الذى يسكن فيه القوم .

مستودع كرمة التجارى :

اهذا المستودع يقع على مسافة كيلو مترين من شاطىء النيل ، وعلى مسيرة خمسة كيلو مترات من جزيرة « أرقو » ويتألف من مبنى على صورة مستطيل مقام باللبنات . وكان ارتفاعه ٩و١٩ من الأمتار عند الكشف عنه . والدور العلوى الذى كان مخصصا للسكن والمؤن قد هدم ولم يبق منه الا الجزء الأسفل .

ويدل ما عثر عليه فى هذا المبنى من مواد غفل وأوان مثل السلال ، والأوعية المصنوعة من الفخار الكثيرة العدد المختومة ، على أن هذه المؤسسة كانت مركزا تجاريا هاما .

وكان المبنى مخصصا لسكنى المصريين ، الذين كانوا يشتغلون بالتجارة مع أهالى الجنوب ، والتاريخ الأصلى لاقامة هذا المستودع غير معروف ؟ على أنه على ما يظهر يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وتدل القطع الأثرية المؤخرة ، التى وجدت فى المستودع التجارى بوجه التأكيد على استمرار وجود هذا المستودع حتى عهد الهكسوس . فنجد فضلا عن طوابع أختام عديدة ذات طراز خاص بهذا العصر ، أسماء سبعة ملوك وتدل شواهد الاحوال على أن هذا المستودع قد امتد زمنه حتى بداية عهد الدولة الحديثة الى ان خربه حريق .

وقد وجدت جبانات ضخمة بالقرب من هذا المستودع ، وهى تقع على مسافة ثلاثة كيلو مترات شرقى مستودع التجارة . وتشمل عدة مقابر مستديرة على هيئة تل ، بعضها كبير والآخر صغير ، كما تحتوى على مزارين مستطيلى الشكل ، وحجرات هذين المزارين مزينة بالرسوم ، وبالأعمدة المقامة فى وسطها . ولا نزاع فى ان هذين الأكوام المستديرة الشكل هى مقابر السكان الاصليين . ويجب ان نلحظ هنا أن ما وجد فيها هو أساسه وطنى غير أنه تأثر تأثيرا عظيما بالثقافة المصرية . ويدل ما فى هذه الجبانات الضخمة من الانتاج الصناعى القومى ، وبخاصة الخناجر ذات الشكل الخاص ، على أن صحابها كانوا محاربين .

الهكسوس واثرهم فى السودان

كانت مصر فى عهد الأسرة ١٢ أقوى دولة فى الشرق الأدنى أى فى خلالى القرن ١٩ ق . م ، فكانت تسيطر على بلاد النوبة السفلى جيوش مصرية ، فى حين أنه فى بلاد النوبة العليا ، كانت الوكالات او المستودعات المصرية فى كرمة مزدهرة نامية .

وبعد سقوط الأسرة ١٢ (١٧٧٥ ق.م)، عادت مصر الى حالتها بعد الأسرة السادسة ، لان ما ساد البلاد من الاضطراب والفوضى فى كلتا الحالتين ، يرجع الى ظروف وعوامل متشابهة . ذلك لأن ازدياد نفوذ الامراء ، وعظم شوكتهم ، نتيجة لازمة لضعف الملكية ، انتقل الحكم من الاسرة ٢١ الى الاسرة ١٣ دون نزاع ، ولكن لم يكد يجلس أول ملوكها على العرش خمس سنوات حتى خلع منه .

وتبع ذلك عصر فتن وشقاق وحروب داخلية ، بين أمراء الأقاليم ، ابتغاء الوصول الى العرش ،حتى حكم منهم ستون ملكا زهاء قرن وربع قرن وكانت مدة حكمهم تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، وبلغت أحيانا يومين أو ثلاثة أيام وأدى تنازعهم على الملك الى اضطراب الحكومة ، واختلال الامن ، وساءت الحالة الاقتصادية لاهمال الري وسوء توزيعه ، وكثرة الضرائب التى فرضها الملوك والحكام على الشعب لانفاقها فى حروبهم الداخلية .

ولما كانت البلاد على هذه الحال ، من الشقاق والتفكك والضعف ، كان من السهل أن تقع غنيمة فى أيدى الفاتحين من الأجانب ، ففى أواخر الأسرة ١٣ حوالى سنة ١٦٥٧ ق.م ، أغار على مصر قوم اسيويون وهم المعروفون باسم (الهكسوس) وقد كان هؤلاء يحكمون سوريا . وفلسطين ، ثم غزوا مصر وحكموها . واتخذوا (أفاريس)فى شرق الدلتا عاصمة لهم ، لتكون وسطا بين مصر وأملاكهم فى فلسطين وسوريا وقد استبقى الهكسوس الملوك المصريين على عروشهم فى خلال الاسرتين ١٣ ، ١٤ واكتفوا بأن جعلوهم خاضعين لهم .

حكم الهكسوس مصر بعد ذلك منفردين فى الأسرتين ١٥، ١٦ ، والغالب أن مدة حكمهم لم تزد عن مائة سنة . وكانوا أول أمرهم ظالمين ، فجعلوا يحرقون المدن ويحطمون المعابد ، ويعتدون على الأهلين ، ويستعبدون النساء والاطفال . ثم غلب عليهم التمدن المصرى ، فحاولوا التمصر وأحسنوا معاملة المصريين . ومع ذلك فقد ظل المصريون يحتقرونهم ويعتقدون أنهم وصموا بوقوعهم تحت حكم الهكسوس .

وقد قضى ملوك الهكسوس ردحا من الزمن ، كانوا فيه أقوياء ، فامتد

سلطانهم على بلاد النوبة السفلى ، كما استحوذوا على التجارة فى كرمة ، واستمرت هذه التجارة مزدهرة دون أى انقطاع لمدة تقرب من قــرن ، بعد ان استولى الهكسوس على مصر . ويدلنا على هذه الصلة ببلاد النوبة، وجود أسماء ملوك الهكسوس على طوابع أختام فى المستودع التجارى، وهى بلاشك كانت مستعملة لختم الوثائق الرسمية . وبغير ذلك لا يمكننا تفسير وجود أسماء ملوك الهكسوس على طوابع أختام فى مستودع كرمة. واذا كانوا جعلوا مستودع كرمة ، تحت سلطانهم ،فان بلاد النوبة السفلى كانت بطبيعة الحال فى قبضتهم . ولا نزاع فى ان كثيرا من الأختــام ، التى وجدت فى المقابر المصرية ببلاد النوبة السفلى ، وهى بكل تأكيد تابعة لعصر الهكسوس . ولم يكن من المتصور قط ، أن يبقى مستودع كرمة مستمرا عندما كانت مراقبة أهالى النوبة السفلى قد انقطعت ، وكذلك خطوط المواصلات التجارية ، لم تكن بعد فى يد الحكومة المصرية .

والظاهر ان الهكسوس لم يكن فى مقدورهم ، أن يمدوا سلطانهم مدة طويلة الوجه القبلى ، اذ لقى هذ الحكم معارضة وطنية شديدة من صغار الحكام ، الى ان قام أهالى اقليم (طيبة)وأسسوا الاسرة السابعة عشرة ، التى احتلت مكانة ممتازة فى لصعيد . وفى هذا الوقت كان الانحــلال السياسى فى الهكسوس ، وكذلك بين صــغار ملوك الأسرات فى الوجه القبلى ، قد أضعف سياسة مصر الخارجية بقــوة ، وبذلك اضــمحلت التجارة مع الجنوب . وتدل الآثار التى وجدت فى كرمة فى هذا العهــد على ان مستودع كرمة ، كان قد قضى عليه وأصبح خرابا . وكذلك نجد أنه فى نفس الوقت تقريبا كانت مصر قد فقــدت ســلطانها على بــلاد النوبة السفلى .

وليس لدينا معلومات أكيدة من عهد الهكسوس المتأخر ، ولا من عهد الأسرة ١٧ عن نشاط مصر السياسي فى الجنوب . وتدلنا احدى اللوحات على ان بلاد النوبة فى نهاية الأسرة ١٧ كانت دائما بلادا حرة مستقلة يمكنها عقد المحالفات مع البلاد الأخرى .

ولكن من المؤكد أنه كان هنالك ثلاث ممالك كبيرة . مصر الشمالية تحت حكم ملك الهكسوس ، ومصر العليا حتى قوص تحت حكم (كايوش) وكوش تحت ملك نوبى .

وحينما أصبحت بلاد النوبة حرة ، وصارت المدنية المصرية المنتشرة هنالك كان من الطبيعى ، أن يرحب بالمصريين ، الذين يريدون أن يخدموا الحكام الوطنيين .. واذا كانت بلاد النوبة السفلى محكومة بحاكم واحد ميوله مع المصريين ، والمدنية المصرية ، فان التغير السريع فى الميوال ، كان بطبيعة الأحوال اكثر سهولة لتفسير ذلك .وفى ظل هذه السياسة السلمية قام أهل النوبة بهجرات عظيمة نحو مصر ، من ذلك يمكن ان نفسر تمصير بلاد النوبة السفلى من الناحية السيكلوجية ، وذلك أن المصرى اذا دخل بلاد النوبة بوصفه سيدا أجنبيا ، شعر النوبى بالحقد والبغضاء ، ولكن عندما أصبحت السياسة فى بلاد النوبة غير تابعة لغيرها ، وكان فضلا عن ذلك عدد كبير من النوبيين يرحلون الى مصر بوصفهم جنودا مرتزقة . أصبح الذوق المصرى هو التبع فى بلاد النوبة . فأصبحوا يجهزون بتوابيت للدفن ، على غرار الذوق المصرى ، كذلك جلبت الأوانى الفخارية المصرية وقلدت فى بلاد النوبة ، كما لبس القوم ملابس مصرية ومن المحتمل أن هذا السلوك ، قد بدأ به صغار الملوك النوبيين ، الذين رأوا أن يفعلوا ما يفعله زملاؤهم المصريون .

وعلى الرغم من ان دفن النوبيين فى مصر يكاد يكون معدوما فى عهد

الدولة القديمة ، ذلك لأن النوبى كان بعد انتهاء مدة خدمته فى مصر يعود ليدفن فى موطنه الاصلى ، الا اننا نجد الآن فى الوجه القبلى جبانات نوبية ومستعمرات ، وهى التى تسمى ثقافة المقابر القعبية الشكل وتمتد فى البلاد المصرية حتى بلدة (ريقة) شمالا . وقد وجدت فى مقابرهم بلط ، وسهام

ونلحظ فى البرج النوبى الواقع فى بلدة (الريقة) مركز الدر بعض تقليد للمبانى المصرية المماثلة ، وهذا المبنى مؤسسة كبيرة ، وهو يكون وحدة منفـردة .

وتدل جدرانه المقامة من الحجر على أنه فى صورته يؤلف حصنا لأمير وطنى . ولا شك أننا هنا أمام مؤسسة نوبية ، كما يدل على ذلك الفخار المختلط بقطع مصرية معتادة . هذا فضلا عن صناعة البناء كلها وبخاصة الجدران المكونة من ألواح الحجر المرتفعة ، يتخللها ملاط عن غرين النيل ، وأحجار خشنة بمثابة حشو وجدرانها مغطاة بطبقة من الطين ، وهذا الفن من المبانى نصادف شبيهه فى مساكن الأهالى فى (وادى العرب)

ومن المحتمل أنه كان يوجد فى بلاد النوبة السفلى مؤسسات أخرى من هذا النوع . ولكن الذى كان فى (الريقة) هو المؤسسة الوحيـدة كبيرة الحجم ، وقد جاء ذكر مختصر لمستعمرة على مسافة ٣٠٠ متر شمالى (عنيبة) وهى تشبه مؤسسة (الريقة) .

الفصل الرابع

السودان فى عهد الدولة الحديثة
١٥٨٠ — ١١٥٠ ق ٠ م

١ — طرد الهكسوس : فى حوالى سنة ١٦٠٠ ق٠م ظهر فى مدينة طيبة أمراء مصريون عظماء يعدهم المؤرخون ملوك الأسرة ١٧ ، وقد عملوا على تخليص البلاد من الهكسوس ، فاستمالوا اليهم بقية أمراء الجنوب، وبخاصة أمراء الكاب (تحب) ، الذين كانوا على جانب كبير من القوة ، لأن بعد بلادهم عن الشمال جعلهم فى مأمن من شر الهكسوس ٠

ولما سمع الهكسوس بنهوض طيبة ، والتفاف أمراء الجنوب حولها حاولوا القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها ، وبدأت بالفعل الحرب بينها واستمرت مستعمرة مدة طويلة حتى تولى الملك (أحمس الأول)٠ وهو فى رأى المؤرخين أول ملوك الأسرة ١٨ فعبأ أسطولا بحريا بمساعدة أمراء الكاب ، واتجه به شمالا ليحاصر أفاريس ، عاصمة الهكسوس واستولى عليها ، وطرد الهكسوس من مصر ، ثم أخذ يتعقبهم فى فلسطين وحاصر مدينة (شاروهين) فى جنوبها الغربى ، واستولى عليها بعد حصار ثلاث سنوات ، وقام كذلك بحروب فى الشام ٠

أحمس والنوبة (١٥٤٠ — ١٥٥٧ ق٠م) : ثم وجه (أحمس) بعد ذلك همه الى بلاد النوبة ، بقصد استرجاع ما فقدته مصر منها اذ كان من أثر الاضطرابات التى حدثت ، بعد سقوط الدولة الوسطى أن شقت النوبة

عصا الطاعة على مصر ، وامتنعت عن دفع الجزية فغزا أحمس هذه البلاد وأخضعهـا .

وتوحى الآثار التى كشفت فى بلاد النوبة بأن أحمس قد استولى على الأقل حتى مابعد (بهين) (شكل ١١) ، ويبرهن على ذلك النقوش التى عثر عليها فى (كوبان) وفى (توشكى) (شكل ١١) وعلى أجزاء مبان من أقدم معبد عثر عليه فى (بهين) ومن الجائز ان هذا الملك قـد زحف الى جنوب الشلال الثانى وذلك لأنه وجد فى حصن مقام على جزيرة (ساى) تمثال نقش عليه اسم هذا الملك .

آمنحتب الأول : ١٥٥٧ ــ ١٥٣٠ ق.م) : وبعد وفاة أحمس الأول خلفه أمنحتب الاول (١٥٥٧ ــ ١٥٣٠ ق.م) . ولم يكد يتولى العرش حتى ثار النوبيون ، محاولين الاستقلال عن مصر ، فسار اليهم بنفسـه وأخضعهم . ونعلم من الأثار أنه فى عهد هذا الملك . قد أقيمت الحدود المصرية الجنوبية عند سمنة ، فقد عثر فى (ورنرنى) وفى سمنة على نقوش لنائب الملك (نورى) مؤرخه بالسنين السابعة والثامنة على نقوش من حكم هذا الفرعون .

وعلى أية حال ليس لدينا برهان قاطع على أن أمنحتب الأول قد وصل فى زحفه حتى (كارى) الواقعة بالقرب من (نباتا) . ولكن وجود تمثال له فى جزيرة (ساى) حديثا : قـد يجعل من الجائز وصوله الى هـذه « المنطقة » ولعل الحفائر الحديثة تحدثنا عن ذلك فى المستقبل القريب .

تحتمس الأول : (١٥٣٠ ــ ١٥٢٠ ق .م) : والواقع أن الذى وسع

نفوذ مصر الحقيقى بدرجة أكثر مما وصلت اليه مصر فى عهد الدولة الوسطى هو الفرعون (تحتمس الأول) فى حملته الاولى على هذه البلاد ، والمصادر

عن هذه الحملة لا بأس بها • وتعتبر اللوحةالتى اقامهاهذا الفرعونعنوانا على انتصاره فى(تومبوس) جنوب الشلال الثالث ، علىهذه البلاد ، أبين دليل لذلك • ويضاف لذلك نقوش صغيرة وجدت فى نفس المكان •

وتدل كل الشواهد على انسبب هذه الحملة كانت ثورة فىبلاد النوبة وان القبائل التى كانت تسكن جنوب الشلال الأول كانت تقوم بهجمات مهددة للامن من هناك ولدينا عامل آخر وهو رغبة المصريين فى أن تصبح البلاد الجنوبية التى كانوا يتعاملون معها فى عهد الدولةالوسطى فى قبضة أيديهم ، ليستولوا منها على المواد الغفل التى تنتجها بلاد السودانوقد وقعت الحملة فى السنة الثانية من حكم (تحتمس الأول)وقد عثر فىجزيرة (ساى) على نقش مدون على الصخر مؤرخ بهذا التاريخ •

وكان هذا الفتح هو الخطوة الأولى فى بناء الامبراطورية المصرية فى افريقية ، ذلك لأن هذا الفتح قد تغلب على كل الصعوبات الحربية ،مما مهد الطريق للذين أتوا بعد ، من الفاتحين ، وساروا فى فتوحهم حتى الشلال الرابع • والواقع أن خطر الدفاع الطبيعى لأهل الجنوب اخترق، ومما ينبغى ملاحظته أن الأسرى الذين استولى عليهم تحتمس الأول فى هذه الحملة وأحضرهم الى مصر ، كما نشاهد ذلك فى الصور ،لاتدل هيئتهم على أنهم زنوج ، بل انهم من الجنس الحامى •

هذا وقد قسمت بلاد النوبة فى عهد تحتمس الأول خمسة أقسام تحت ادارة أمراء نوبيين ، كان لهم نصيب فى ادارة مقاطعات البلاد • كما يرجع اليه الفضل فى تطهير القناة القديمة لتفادى الشلال الأول • ويعتبر هذا من الأعمال الهامة لحل مسألة المرور ، لضمان مرور كل السلع الآتية من السـودان •

تحتمس الثانى ومعـه حتشبسوت : (١٥٢٠ — ١٤٨٤ ق • م) :

وفى السنة الأولى من حكم تحتمس الثانى قامت فى شمال بلاد كوس ثورة، وكان الاقليم النوبى قد أصبح فعلا يشمل (كوش) و(واوات) وبذلك كان المقصود ببلاد كوش الاقليم الواقع جنوب الشلال الثانى • ومن جهة لم تكن هذه الثورة كما كان المنتظر فى الاقليم المفتوح حديثا جنوبى (سمنة) بل ، شبت فى بلاد النوبة السفلى ، وتتلخص فى أن أحد الأمراء النوبيين قد حاول بسبب الضعف الذى اصاب البلاد من جراء تغير المتربع على العرش أن يفيد من هذه الفرصة ، ويحرر البلاد نفسها من النير المصرى ومن المحتمل أن أطماع القائم بهذه الثورة لم تذهب الى هذا الحد وانه أراد بثورته هذه النهب لاثراء نفسه وحسب ، هذا ولا نعرف الى اى حد ذهب الأمير النوبى الثائر فى ثورته للتحرر من النير المصرى •ولكنا نعرف أن الثورة قد أخمدت ، وعاد النظام ، وتدل النقوش صراحة على ان الملك تحتمس الثانى لم يرافق هذه الحملة بنفسه ، كما جرت العادة مع ملوك مصر فى حروبهم ، ونفهم من منطوق المستند أن الهزيمة كانت دامية ، والانتقام من الثائر كان وحشيا •

وقد مرت فترة طويلة بعد هذه الحملة التأديبية قبل أن نسمع بحروب عظيمة فى بلاد النوبة ، وتدل الاحوال على انه فى عهد الملكة حتشبسوت التى تولت العرش بعد زوجها تحتمس الثانى ، قد سادت العلاقات الودية فى كل أرجاء الامبراطورية المصرية •

هذا ولا تدل الحفائر التى فى السودان على شىء مؤكد عن مد نفوذ مصر فى السودان فى عهد الملكة حتشبسوت • وكذلك لم يعثر حتى الآن على لوحات أثرية من هذا العهد جنوبى جزيرة (أرقو)• ومن جهة أخرى يمكن اعتبار وجود بعض أشكال زنوج فى مناظر لأهالى (ثميو)، وهم

يقدمون الجزية فى معبد (الدير البحرى)، بمثابة رمز على علاقة ودية مع الأقطار الجنوبية •

تحتمس الثالث : بعد أن فرغ من حروبه الأسيوية وجه همه الى بلاد

النوبة فسار على رأس حملة الى بلاد السودان • ويحدثنا نقش عند الشلال مؤرخ بالنسبة الخامسة من حكمه بنفس الكلمات التى ذكرت فى نقش (تحتمس الاول) وهى أنه « حفر قناة عند الشلال الأول ، لأنه وجدها مملوءه بالحجر » •

وكانت الجزية المفروضة على (كوش) و(واوات) تصل بانتظام الى مصر • وفضلا عن ذلك نقش هذا الفرعون على بوابته بمعبد الكرنك قوائم بأسماء أهالى الجنوب ، الذين انتصر عليهم •

هذا ونعلم من اللوحة التى عثر عليها (رزنر) فى جبل (برقل) للملك تحتمس الثالث ، أن النفوذ المصرى كان فعلا فى السنة السابعة والأربعين من حكم هذا الفرعون ، يمتد الى هذه الواقعة تحت الشلال الرابع •

وفى هذا المكان الذى وصلت اليه الحدود ــ وكان الشلال الرابع يعد نقطة الحدود ــ التى كان من السهل حمايتها ، كما كان من غير الممكن التغلب عليها أيضا • ولذلك بقيت منطقة (نباتا) الواقعة بالقرب من (جبل برقل) مدة مائة سنة تقريبا مركز الحدود المصرية • ولم يمتد ملك الفراعنة بعد هذه النقطة فقط • وأصبحت هذه المنطقة محط التجارة ، حيث لعبت دورا هاما فى جميع المحاصيل الجنوبية وتصديرها الى الامبراطورية المصرية •

وبوفاة تحتمس الثالث فرح سكان بلاد النهرين وشمال فينيقيا وظنوا أن الفرصة قد سنحت للثورة على مصر ، لاسترداد استقلالهم ولكن خلفاء هذا الملك العظيم ، ساروا سيرته فى الحزم ومضاء العزيمة فقضوا على

الثورات ، وأعادوا الأمن والهدوء الى الامبراطورية الأسيوية ، وكذلك أخمدت الجيوش المصرية القلاقل التي كانت تحدث من وقت لآخر في بلاد النوبة ، فتوطد نفوذ مصر في تلك الجهات .

أمنحتب الثاني : (١٤٥٠ ق.م) : كان هذا الفرعون هو آخر من وسع رقعة البلاد المصرية وثبت حدودها من الجهة الجنوبية . وبذلك يعد عصره نهاية الفتح السياسي في هذه الجهة . ولذلك نجد أن الحملات التي قام بها الملوك الذين خلفوه لم تكن حملات لمد حدود مصر ، بل كانت حملات تأديبية في وادي النيل على بدو الصحراء الذين كان لا غرض لهم الا النهب والسلب من الأهالي .

وأول ملك قرن اسمه ببلاد السودان بعد تحتمس الثالث هو ابنه أمنحتب الثاني ، غير أنه ليست لدينا نقوش أو مناظر تحدثنا عن قيامه بمشاريع حربية في هذه البلاد . وكل ما نعرفه عنه هو ما جاء في نقشين موحدين من حيث الألفاظ . فقد جاء فيهما : « أن الملك بعد أن جاء من حملته في آسيا قتل سبعة أمراء من أهل (تحسى) ، وعلق ستة منهم على جدران طيبة ، في حين أن السابع قد ارسل الى (نباتا) في تاستي (بلاد النوبة) وعلق جسمه على جدرانها » .

هذا وقد وجد لهذا الملك تمثالان صغيران في (بن نجا) و (وادي بانجع) الواقع بين الخرطوم و (مروى) ولاشك أنهما قد نقلا الى هذا المكان . وعلى ذلك ليس هناك أي أساس للرأي القائل : ان سلطان مصر قد وصل في عهد أمنحتب الثاني الى ما بعد الشلال الرابع .

ولهذا الملك فوق ذلك آثار عدة في بلاد النوبة .

أمنحتب الثالث : (١٤٠٥ ـــ ١٣٧٠ ق ٠م) : كانت سياسة تحتمس الرابع سلمية مع أهل الجنوب ، وتدل النقوش والآثار المكشوفة على أن عهد الملك أمنحتب الثالث ، الذى خلفه ، كان كله عهد سلام ومهادنة ولم تكد تحدث فيه حروب ، اللهم الا حملة ارسلها الى بلاد كوش ، والأخبار التى استقينا منها أخبار هذه الحملة هى : لوحتان ملكيتان على الصخور فى الطريق بين أسوان والفيلة ٠ وتاريخ هذه الحملة كانت فى السنة الخامسة من حكمه ، وكان من نتائجها أن عاد الأمن الى نصابه ٠

ووجد على بعض الصخور بسمنة كتابة يدل على ان الملك توغل بجيوشه فى أثيوبيا ، وأسس من أهلها ٧٤٠ نفسا ٠ كما بنى هيكلا فى نبتة ووضع أمام بابه صفين من الكباش الرابضة على هيئة أبى الهول ٠ ويوجد فى صلب آثار هيكل من بناء هذا الملك ٠

أمنحتب الرابع أو اخناتون : (١٣٧٠ ـــ ١٣٥٢ ق٠م) : لقد وجه هذا الملك كل اهتمامه للمسائل الدينية ، فلم يقم بأية حملة حربية فى المستعمرات المصرية الآسيوية ، حيث كانت الأحوال تدعو لذلك ، ولا فى الجنوب أيضا ، ومع ذلك لم يضعف سلطان الحكومة المركزية فى بلاد النوبة بأية حال من الأحوال ، ولم تخرج أية بقعة من بقاع النيل عن دائرة سلطانه ، كما يدل على ذلك صراحة ماحدث من محو اسم الاله (آمون) ، وصور الاله فى كل أنحاء بلاد الوادى حتى (جبل برقل) ٠ وكذلك فان اسم نائب الملك فى عهد هذا الفرعون ٠ كان موجودا حتى الحدود الجنوبية ٠ يضاف الى ذلك النشاط الذى أظهره هذا الفرعون فى البناء والتعمير فى الجنوب ، فانه يعد بمثابة تطور فى العلاقات السلمية أكثر من قبل : ففى (سسى) التى أقام جدار مدينتها يوجد معبد صغير للاله (آتون) ،

وكذلك توجد مناظر فى معبد (صلب) باسمه • وقد وجد فى (سدنجا) جعران باسم هذا الملك •

كل هذا يدل على ان بلاد النوبة كان يسودها السلام والنظام ولم نجد أى متن يحدثنا عن حملة حربية ضخمة لقمع أية ثورة هناك •

حور محب : وفى العصر الذى تلا عهد اخناتون نجد أن حور محب قد لعب دورا سياسيا عظيما • وكان فى عهد حكم (توت عنخ آمون)•هو القائد الحقيقى للسياسة الخارجية والسياسة الداخلية معا • وقد قبض على زمام الحكم فى القطرين عدة سنين •

« وقد حضر رجال البلاد منحنين أمام باب القصر وامراء البلاد الاجنبية من الجنوب والشمال قد أتوا بأيديهم مرفوعة مادحين اياه كأنه اله ،وكل شيء يطلب عمله كان يعمل على حسب امره » •

وفى عهد توت عنخ آمون قد اقيمت بلدة جديدة أو على الأقل أسس معبد فى(فرس)• وخصص لعبادة الفرعون ، وقد كان النظام فى بلاد النوبة سائدا ،وكانت رحلة حور محب الى بلاد النوبة • تمليها سياسة الدولة الداخلية

ولعل هذه الرحلة التى قام بها حور محب ،المدبر لأمور الدولة ، كانت رحلة تفتيشية ، ليطمئن على اخلاص موظفيه فى عملهم فى بلاد النوبة • والواقع أن بلاد النوبة بثروتها الغنية ، كانت تلعب دورا هاما فى سياسة مصر الداخلية ، وبخاصة فى الاوقات المضطربة اذ كانت فى أوقات الحرب مليئة بالاحزاب الكبيرة •فاذا كان نائب الملك وموظفوه ، وكذلك السيطرة على موارد المواد الغفل فى الجنوب وبخاصة مناجم الذهب العظيمة فى يد الفرعون • فان ذلك يكون سببا فى الانتصار على عناصر الدسائس فى سياسة البلاد الداخلية ، والقبض على زمام الموقف •

ولما اعتلى حور محب عرش البلاد (١٣٥٠ ق•م) قام بحملة على بلاد

كوش . ومن المحتمل أن هذه الحملة لم تكن الا مجرد مظاهرة قام بها رجل أعلن نفسه ملكا على البلاد ، ولم يكن لديه سند شرعى يدعى به تولى الحكم .

وقد دون خبر انتصاره فى هذه الحملة على الغار الكبير فى جبل السلسلة شمال أسوان حيث ترى صورته على شكل مقاتل حاملا على كتفه فأسا كأنه يلتمس من الاله (أمنرع) دوام حياته وتأييد نصرته على أهل الجنوب .

رمسيس الأول : تولى الحكم بعد حورمحب ، ولم نعرف العلاقة بينهما ، ويعده المؤرخون مؤسس الاسرة ١٩ . ولرمسيس الأول هذا معبد فى (بهين) أقامه هذا الملك وجهزه بالكهنة .

ولما خلفه الملك سيتى الأول ، قام هذا بحملة حربية على اقليم (أرم) ولكنها ليست ذات أهمية تذكر .

رمسيس الثانى : ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الثانى للامبراطورية المصرية بعد الملك تحتمس الثالث ، ولدينا فى عهد هذا الفرعون مادة كثيرة ولكنها على الرغم من غزارتها لا تقدم لنا شيئا يذكر عن الحوادث التاريخية الخاصة ببلاد النوبة : فلا نجد فى المناظر العدة الدالة على حروب نوبية ، ما يمكن ان نستخلص منه تاريخا معينا أو مكانا معروفا وقعت فيه حروب بوجه عام .

والرسوم الخاصة بالمناظر الحربية نجدها فى ثلاثة معابد هى: أبو سمبل ، وبيت الوالى ، والدر (شكل ١٠) .

وفى بلدة العمارة القديمة عثر حديثا على مناظر فى داخل البوابة لهاقيمتها الأثرية ، وهى من عهد رمسيس الثانى . فعلى الجدار الجنوبى نجد منظر يمثل

هذا الفرعون يهجم بعربته على مجموعة من النوبيين ، وعلى الجدار الشمالى صورت عودة الفرعون منتصرا • ومع ذلك نجد متنا قصيرا مؤلفا من سطرين ، سجل فيه أن الحملة قد وجهت على أرض (أرم) النوبية وبه ما يزيد على سبعة آلاف أسير • وهذا المتن القصير تعد أول سجل معروف لدينا عن حملة قام بها رمسيس الثانى على بلاد (أرم) • بل الواقع أن هذه الحملة تعد أول حملة حقيقية تاريخية لهذا الفرعون فى بلا النوبة ولرمسيس الثانى هيكل آخر منحوت فى صخرة فى الدر أقامه لعبادة الاله (رع) وذكر فيه أيضا انتصاراته على الأثيوبيين •

وله هيكل من الحجر الرملى الصلب فى السبوع وعليه صورته يقدم البخور للاله آمون وهو يقول له : « لك أعطى كل القوة وأعطيك العالم بسلام » • وفى أسفل جدران بعض الغرف أسماء أولاد رمسيس وعددهم ١٧٨ نفسا • ومن أعماله انه جدد استخراج الذهب والزمرد من وادى العلاقى • وهناك آثار قلعه يظن أنها من عهد رمسيس الثانى ، وان القدماء كانوا يذهبون منها الى ذلك الوادى •

ومن مبانيه كذلك فى هذه البلاد هيكل (أبو سمبل) على بعد ١٧٠ ميلا من الشلال الأول ، وله هيكل فى نبتة لاتزال بقاياه الى الآن ، وهو أقدم هياكل تلك المدينة (شكل ١٠ ، ١١)

مرنبتاح : وبعد عهد رمسيس الثانى نجد التحدث عن المواقع الحربية قد أخذ فى النقصان • ففى عهد مرنبتاح خلف رمسيس الثانى وابنه نعرف فقط لوحة واحدة مهشمة فى عمدا (شكل ١٠)، وهى تحدثنا عن اخماد ثورة فى (واوات) • وحاول هذا الملك جهده فى المحافظة على الامبراطورية •

واضطرته هذه السياسة الى ارسال حملات تأديبية الى بلاد الشام وأخرى لصد الليبيين من الغرب .

رمسيس الثالث : ويعتبر المؤرخون مؤسس الأسرة العشرين وقد عثر لهذا الفرعون على معبد كبير فى مدينة (هابو) . وعلى جدران هذا المعبد نجد صور حرب نوبية قد مثلت فى ثلاثة مناظر ، وخلافا لذلك نشاهد قائمة طويلة منقوشة بأسماء أهل الجنوب المغلوبين على الجانب الأمامى للبوابة الأولى بالمعبد ، لكن هذا لا يكاد يكون له قيمة تاريخية لانه لا يثبت على وجه التأكيد قيام حملة حربية نحو بلاد النوبة . وهذا يعنى أن رمسيس الثالث لم يقم فى مدة حكمه بأى أعمال حربية فى الجنوب . والواقع أن بلاد النوبة — من الآن لمدة طويلة — لم تعد بلادا أجنبية لها ثقافة مميزة بل كانت تعد جزءا من المملكة المصرية مرتبطة بها ارتباطا وثيقا لدرجة أن شخصيتها من حيث الثقافة والجنس قد فقدت .

عوامل ضعف الامبراطورية : وهذا الفرعون استطاع أن يحافظ على تراث أسلافه ، فصان الامبراطورية من الضياع ، وحطم المحاولات ، التى بذلها أعداء مصر لغزوها وابتلاع أملاكها . ولكن هذه الانتصارات اللامعة لم تستر عوامل الضعف والانحلال ، التى كانت كامنة فى جسم مصر منذ زمن طويل ، فلما تقدم رمسيس الثالث فى السن ، وبدأ عليه الضعف أخذت العوامل فى الظهور . وكان الكهنة العامل الأول ، فيما أصاب مصر من ضعف وانحلال ، اذ كانوا على درجة كبيرة من الثراء . وبينما كانت مصر كلها تئن من كثرة ما أنفقه الملوك فى حروبهم وحفلاتهم واقامة مبانيهم ومعابدهم ، كان الكهنة وحدهم يتمتعون بالثروة والجاه . وأخذوا يتدخلون فى الأمور السياسية والجيش الذى كان فيما مضى عدة مصر ، وأداتها فى الفتح والغزو ،

أصبح الآن سببا جديدا من أسباب فساد الحال فى مصر وضعفها ، اذ أصبح قوامه الجنود المرتزقة . وهؤلاء جميعا كانوا على استعداد أن يولوا ثقتهم كل من يجزل لهم العطاء ، ويغرقهم بالمال . وخلف رمسيس الثالث بعد أن حكم ٣١ سنة ، ملوك تسعة حكموا مددا قصيرة .

وقد عثر الأثرى (مريت) ١٨٧٦ على حجر فى شونة الزبيب بالعرابة المدفونة فى مصر كتب عليه : أن الملك رمسيس الثاني عشر (آخر ملوك الأسرة ٢٠) أصدر أمره الى (بيانحاس) حاكم الأثيوبيين ، ورئيس الامم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول فيه: « أنفذت اليك مستشارى بكتاب ضمنته أوامرى ، فعند وصوله اليك ساعده على انجازها بالحسنى . لأنه هو المكلف باتمامها . وعليك أن تلاحظ توابيت (المعبودة) وتضعها فى سفينة وتأتى بها معه الى المكان الذى أعد لها . واحضر معك الأحجار النفيسة للصناع ، واحذر من التأخير فى انجاز هذا الأمر والا خلعتك » .

ومع ذلك فقد كان هذا الفرعون ومن سبقه ضعاف اعتمدوا اعتمادا كليا على الكهنة ، حتى صار كبير الكهنة آمون يجمع الى جانب سلطته الدينية نفوذا سياسيا واسعا ، فأصبح قائد الجيش وأمين الخزانة ، بل اتخذ لنفسه لقب حاكم كوش .

واستطاع الكهنة بعد موت رمسيس الثانى عشر أن يحكموا البلاد . فقد اعتلى « حريحور » كبير الكهنة العرش ، وظل الكهنة يحكمون البلاد حوالى ١٥٠ سنة ، وفى عهدهم انكمشت الامبراطورية المصرية وفقدت مصر سلطانها على أمراء سوريا وفلسطين، ولم يبق لها من أملاكها الواسعة سوى بلاد النوبة .

١ ـ ادارة بلاد النوبة فى عهد الدولة الحديثة

كان فراعنة الدولة الحديثة يولون نوابا لادارة بلادالسودان ، وكانت منطقة الأراضى ، التى يسيطر عليهـا نفوذ نائب الملك تختلف باختلاف الازمان بعض الشىء • وكانت غالبا تنحصر بين « نخن » وجبل برقل ، وقد كان نائب الملك بوصفه أعلى موظف هو المسئول قبل كل فرد عن توريد جزية اقليم النوبة تلك الجزية التى كان يتوقف عليها عظمة الفرعون وسلطانه ، اذ كانت تعد مصدرا هاما لمصر ، ولا نزاع فى أن هذه الاتاوة كانت تتطلب ادارة فنية حازمة من النائب ، ومع ذلك فاننا نجد من بين كل النواب الذين عينهم الفراعنة فى هذا المنصب الخطير ،من كان صاحب قدرة خاصة فى الادارة •

وتدل شواهد الاحوال على أن وظيفة نائب الملك ، كانت تنتخب من دائرة المقربين لدى الفرعون ، ذلك ليوثقوا العلاقة بين بلاد النوبة وبين الملك ، وكذلك ليكون الملك على ثقة من أن الموظفين النوبيين مخلصون ، هذا ولم يكن لكل نائب ملك مجال حياة مرسومة ، بل كان الملك ينتخب النائب على حسب قدرته ومعرفته ، للوظيفة التى كان ينتخب ليشغلها • فمن الجائز ــ كما يظهر ــ أن كل موظف كبير يبرهن على أنه أقدر من غيره فى جمع الضرائب ، كان ينتخب لشغل وظيفة نائب الملك ، وتدل ظواهر الأمور على أنه كان حرا فى وظيفته ، وليس مسئولا أمام أحد غير الملك•

واذا كانت جزية بلاد النوبة تصل الى مصر بواسطة موظف آخر ، فليس معنى ذلك أن نائب الملك كان تحت ادارة هذا الموظف ، او انه مسئول أمامه ، والواقع أن نائب الملك كان مسئولا أمام الفرعون عــن

إحضار الجزية شخصيا ، وتدل النقوش على ان هذه الجزية ، كانت تقدم أمام الفرعون فى أغلب الأحيان باحتفال عظيم •

وكان نائب الملك يسيطر على طائفة كبيرة من الموظفين ، يستطيع بعونهم تأدية أعماله ، وواجباته ، وأهم واحد بين هؤلاء الموظفين هو قائد جيش الرماة لكوش وهو الذى كان على رأس الجنود الذين فى خدمة نائب الملك • هذا بالاضافة الى وكيلين للنائب ، يقوم واحد منهما على ادارة بلاد (واوات) والآخر على ادارة (بلاد كوش) • وكان اقليم (واوات) يمتد من أسوان حتى الشلال الثانى • والاقليم الثانى يمتد من الشلال الثانى حتى الشلال الرابع تقريبا • على ان التزامات كل موظف من هؤلاء بالنسبة للاخرين وتحديد نفوذه تماما يصعب معرفتها •

وفضلا عن هؤلاء الثلاثة الموظفين الكبار ، وكان يوجد عدد عظيم من صغار الموظفين ، وتدل شواهد الاحوال على ان الادارة كانت فى تكوينها كالادارة المصرية نفسها فى تلك الفترة •

وكان معظم هؤلاء الموظفين ، الذين يعملون فى بلاد النوبة من المصريين، ولكن كان بينهم نوبيون متمصرون حتى فى أسمائهم •

وبجانب الوظائف هذا كان يقوم الأمراء النوبيون ، الذين يوجدون فى بقاع مختلفة بتمثيل دورهم ، فمثلا نجد فى عهد الملك (توت عنخ آمون) كيف أن أمير (معام = عنيبة) ، والأمراء الآخرين من (واوات) يظهرون على رأس اتباعهم فى البلاط الفرعونى عند تقديم الجزية •

ولا نعرف بالضبط الدور الذى كان يقوم به هؤلاء الأمراء • وقد رأينا من قبل أن الملك تحتمس الاول قسم بلاد النوبة خمسة أقسام، ووضع على رأس كل منها أميرا نوبيا • ومن ثم نرى أن المصرى، كان يجرى وراء الابقاء على

هذه العلاقة طالما يقدم هؤلاء الأمراء الجزية ، والولاء للفرعون . وكانوا بطبيعة الحال تحت سلطان نائب الملك صاحب كوش ، ونائبيه . وقد كان كل منهم يسعى للحصول على استقلاله السياسى ، يصيبه القهر والكبت، وينال العسف ، ومع ذلك فقد ظل فى أيدى هؤلاء الأمراء بعض النفوذ السياسى . فهم الذين كانوا يعدون القوة المعبرة ، التى تقوم بالثورات فى بلاد النوبة، وكان لهم أحيانا اتصال بقبائل النوبة الاحرار .

واقتضى هذا النظام لحكم النوبة أن يأخذ الفرعون عنده فى مصر أولاد هؤلاء الامراء ليكونوا بمثابة رهينة . وهناك يربون تربية مصرية خالصة فكانوا يربون فى البلاط الملكى مع أولاد الملك والأمراء .

وتدل تنشئة أولاد الامراء النوبيين فى البلاط مع رؤسائهم فى المستقبل على أن المصرى لم يكن مسلكه فى بلاد النوبة مسلك سياسة السلب والنهب ، بل كان يعيش معهم عيشة سلام ووئام . ولم يحاول المصرى قط ان يفنى النوبى ويقضى عليه . اذ لم نجد أبدا أنه أبعد أسرة أمراء وطنيين، وقد كان ذلك من الامور التى يسهل اتيانها .

واقتضى النظام الادارى لبلاد النوبة فى هذا العصر ، هجرة كثير من المصريين الى الأقاليم النوبية ، ليقوموا بتدريب أهل البلاد على طريقة الادارة المصرية ، فكثر تبعا لذلك عدد الجنود المصريين والموظفين والكهنة ، وهؤلاء هم الذين سكنوا البلاد ، وأقاموا فيها مؤسسات لأنفسهم ، غير أن هذه المؤسسات على ما يظن كانت منحصرة فى مراكز الادارة والحكومة . فى حين أن القرى والمساكن الأخرى ، كان يقطنها النوبيون الأصليون .

وقد رأى ملوك هذه الدولة الحديثة — تجنبا لثورات الأهالى — تمصير

هذه البلاد وطبعها بالطابع المصرى ، وهذا التمصير لايمكن ان يقوم الا اذا اختلط المصريون بأهالى هذه المنطقة ، لذلك نجدهم فى بلاد النوبة لسفلى يعيدون استعمال حصون الدولة الوسطى وذلك باعادة اصلاح الكثير منها ، وظهر هذا الاصلاح جليا فى حصون : ألفنتين وكوبان وفرس وبهين (شكل ١٠) .

وكان يقوم فى بعض هذه الحصون مثل (ورنرتى) و (سمنة) و (قمة) ، فى عهد الدولة الحديثة معابد لاقامة الشعائر الدينية ، بها ما يلزمها من الكهنة والخدم ، الذين كانوا يقيمون فيها . من ذلك أن تحتمس الثالث بنى معبدا لآمون فى (جبل برقل) ، والواقع ان الاعمال الحربية ، بعد نقل الحدود الى الجنوب . قد جعلت مستلزمات الدفاع تنتقل الى حصون أخرى أقيمت فى البلاد التى فتحت جديدا على ما يظن منذ تحتمس الاول وهذه الحصون لم تكن مهمتها الدفاع ضد أهالى الجنوب وحسب ، بل كانت على ما يظن — لتكون مكان هجوم على اهالى الصحراء المغيرين ، أو لتهدئة قبائل البدو ، ومانعة من ان يثبت العدو قدمه فى أى مكان يعوق المواصلات الى الجنوب ، ونعرف من بين الأماكن المحصنة فى هذه الرقعة خلافا لجزيرة (ساى) حتى الآن العمارة غرب ، وسدنجا ، وسى ، وصلب . وفى الجنوب على مسافة كبيرة تقع بلدة (كاوا) . وأخير تقع فى نهاية الحدود الجنوبية عند (جبل برقل) المقدس مدينة (نباتا) المحصنة ، « شكل ١١ »

ومن الملاحظ أن هذه المدن جميعها كانت تتشابه فى طريقة بنائها وفى تكوينها ، وكل مدينة من هذه المدن كان يحوطها سور كبير ، وداخل هذا السور كانت توجد مساكن الموظفين والجنود . وفى وسط المدينة كان

المعبد يبنى من الحجر مختلفا عن بقية البيوت المبنية من الطين . وهذا المعبد نفسه ذا طراز واحد فى كل المدن ، وان كان يختلف فى حجمه من مدينة لأخرى ، أما المعبد نفسه فقد كان محاطا بسور من الحجر رسمت عليه صور الملوك المصريين فى حروبهم الى جانب صور الآلهة المختلفة .

ولم تكن هذه الجدران تقام لمجرد الزينة ، بل كانت تقام للمحافظة على كنوز المعبد وثروته من النهب ، والسلب ، وخاصة فى عهد التدهور

وفى باب المعبد كان يوجد عادة برجان لمسكن الكهنة والموظفين ، وفى داخله يوجد مخزن الغلال الذى جمعت من الضرائب ، وكان الغرض من بناء المخزن داخل المعبد هو صبغ الضرائب بالصبغة الدينية ، أى ايهام الناس بأن هذه الضرائب هدايا أو قرابين للالهة . وخلف هذا المعبد نجد صفا من الاعمدة تنتهى بالهيكل لديني نفسه حيث يقيم الكهنة صلواتهم . وهذه المعابد لم تكن صغيرا بل نجد منها معابد ضخمة مثل معبد صلب الذى كان طوله ٥٠٠ قدم ، ومعبد آمون فى «جبل البرقل» . وغالبا ماكانت هذه المعابد تقام بالقرب من أراض خصبة ، ومراكز آهلة بالسكان .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المادة التى عثر عليها تبرهن على أن بلاد النوبة السفلى لم تكن بأية حال من الأحوال أرضا صحراوية ، فقد أثبت العالم الأثرى « فرث » وجود أماكن ، ومقاطعات خصبة فى بلاد النوبة كما يدل على ذلك نقش من « القرنة » يرجع الى عهد رمسيس الثانى .

والدليل على ان الزراعة لم تنقطع فى تلك البلاد ، ماتحدثنا به النقوش هنالك من ان الأرض الزراعية ، التى كانت موقوفة على عبادة تمثال رمسيس السادس ، وذلك بالقرب من عنيبة ، تدل على وجود حقول كتان وحدائق

والمهم أن هذه المدن قد أدت مهمتها بنجاح فاعتاد سكان كوش على الحياة المصرية واستمروا مقلدين لها فى كل شىء وهذا يفسر لنا طول المدة التى حكمها المصريون بدون ثورات ٠

٣ – حالة بلاد النوبة الاقتصادية فى عهد الدولة الحديثة

سنحاول هنا أن نعطى صورة عن الحالة الاقتصادية لبلاد النوبة فى هذا العصر معتمدين فى ذلك على ما وجدناه مذكورا من المحاصيل الجنوبية على الآثار الحكومية والنقوش العادية من جهة وما نجده ممثلا من جزية وبخاصة فى مناظر المقابر الخاصة من جهة أخرى ٠ ومما يؤسف له ان النقوش التى نجدها على المبانى الحكومية لا تقدم لنا صورة حقيقة عن قوائم الجزية الفعلية ٠ وعلى ذلك لا يمكننا ان نعطى فكرة عامة عن الجزية ٠

فالواقع ان المناظر الخاصة بتوريد الجزية ،كانت تسير على نهج واحد، وذلك أنه كانت تصور أمام الملك كرمة أنيقة التنظيم من السلع ٠ ويقف الموظف الخاص بتقديمها أمام الفرعون ليقدم حسابه ويرى خلف الجزية المكدسة ، أمراء البلاد الذين كانوا يوردون هذه الجزية راكعين وكان هؤلاء الأمراء يميزون عن رعاياهم ، الذين كانوا يرتدون قمصانا قصيرة حاملين على أكتافهم منتجات بلادهم بملابسهم الثمينة وزينتهم الفاخرة ٠

ومن طريق الصدفة أننا عثرنا على أحد مناظر الجزية من عهد الملك أمنحتب الثانى فى معبد قصر ابريم ، وقد وردت الكميات فى صور رجال محملين بحاصلات الجنوب من الذهب وسن الفيل والأبنوس والفهود الحية وكلاب الصيد ٠٠ الخ ٠

وهذا وقد عثرنا على نقش آخر وجد على صخرة فى (تومبوس) يرجع

الى السنة العشرين من عهد تحتمس الثالث • وقد دون فيه مقادير الجزية من الأشياء الثمينة المختلفة الأنواع من كوش •

ومهما يكن من أمر فأن هذه النقوش تقدم لنا صورة ناقصة مبهمة عن الدور الذى كانت تقوم به بلاد النوبة فى الحياة المصرية الاقتصادية ، ولكن من الممكن أن نلاحظ أن الذهب كان أهم محصول فى تلك البلاد • وعرفت المقادير المعلومة ، التى كانت ترسل لمصر فى عهد الدولة الحديثة كجزية سنوية • فعرفنا أن الضرائب النوبية من الذهب كانت قسمين : الضرائب التى كانت تجبى من (واوات)• والكمية الكبيرة كانت تجبى من الاخيرة ، وهو الاقليم الذى يقع بين الشلال الأول والشلال الثانى بما فى ذلك طرقه الصحراوية ، التى تشمل على مناجم الذهب غنيـــة فى (وادى العلاقى) شرقى (كوبان) ، والاحصاء الذى بقى لدينا من مناجم واوات هو :

ففى السنة ٣٤ من حكم تحتمس الثالث = ٢٥٥٤ دبنا = ٤ر٢٣٢ كيلوجرام
وفى السنة ٣٨ من حكم تحتمس الثالث = ٢٤٨٤ دبنا = ٨ر٣٥٨ كيلوجرام
وفى السنة ٤١ من حكم تحتمس الثالث = ٣ر٣١٤٤ دبنا = ١ر٢٨٦ كيلوجرام
وفى السنة ٤٢ من حكم تحتمس الثالث = ١ر٢٣٧٤ دبنا = ٢١٨ كيلوجرام

والمحصول السنوى من بلاد كوش أل بكثير من محصولى بلاد «واوات» ويرجع السبب فى ذلك الى ان مناجم الذهب كان الوصول اليها صعبا هناك • هذا الى ان طرق النقل الى مصر كانت اطول • ويلاحظ ان كثيرا من الذهب ، الذى كان يستخرج من الاقليم الواقع فى الجنوب الشرقى من الشلال الثانى لم يكن يستخرجه المصرى ، بل كان يقوم بتعدينه الأهالى من النوبيين • وكانوا يدفعون جزية لمصر • والذهب الذى كان يدفع جزية

على حسب ماجاء فى تواريخ تحتمس الثالث من ادارة بلاد كوش هو •

فى السنة ٣٣ = ٢ر١٥٥ دبنا = ١ر١٤ ك•ج

فى السنة ٣٤ = ٣٠٠ دبنا = ٣ر٢٨ ك•ج

فى السنة ٣٧ = ١ر٧٠ دبنا = ٤ر٦ ك•ج

فى السنة ٣٨ = ١٠٠ دبنا = ١ر٩ ك•ج

فى السنة ٤١ = ٢ر١٩٥ دبنا = ٨ر١٧ ك•ج

هذا فضلا عن أن الاله آمون كان يحصل على مقادير من الذهب كهدايا من رعاياه فى بلاد النوبة ، ففى عهد رمسيس الثالث وردت كمية من الذهب من بلاد النوبة الى الاله «آمون» تقدر ٨ر٢٩٠ ، دبنا ، يضاف الى ذلك ٥ر٢١٧ دبنا من الذهب النقى •

وفوق ذلك نجد من ضمن ما كان يقدم من الجزية بعض الصناعات اليدوية النوبية مثل الزهريات الفاخرة وكراسى ودروع وأقواس :وكراسى ذات ظهور • ويقول بعض علماء الآثار :« ان هذا يدل على ان هذه الحضارة ، وان كانت متأثرة بالحضارة المصرية ، الا أنها كانت فى لبها سودانية الاصل • »

وتضع أمامنا الجزية التى صورت فى مقبرة حوت فكرة التبادل، وما كانت عليه اليد العاملة النوبية من مهارة فى ذلك العهد •

ومما تجدر ملاحظته كذلك الأشياء الفنية التى كانت تأتى من بلاد « واوات »، بخلاف الأشياء الغفل التى كانت تأتى من بلاد (كوش)، ولعل ذلك يرجع الى ان (واوات) كانت أقرب جزء من بلاد النوبة الى مصر حيث كان يسكن كبار الحكام الذين يميل ذوقهم الرفيع الى المنتجات الدقيقة

وان هؤلاء الحكام كانوا يسعون فى تحسين الصناعات المحلية عند السكان .
ومن ضمن الجزية كذلك لاحظنا فى عهد الملك خنشبسوت وصول عربة كبيرة من الخشب (خشب السنط) ، من بلاد كوش مشغولة بالذهب كما حدث فى عهد تحتمس الثالث توريد أشياء من خشب (كوش) ، وقد عمل نجارتها جنود كوشيون عديدون هناك . هذا فضلا عن ورود بعض المواد المعدنية والنباتات الملونة بالألوان الحمراء والخضراء والزرقاء فى هيئة كتل .
وكان كل من خشب الأبنوس ، وسن الفيل ، والعطور ، والبخور ، الذى كان يورد لمصر من بلاد النوبة منذ الدولة القديمة يتدفق على مصر فى عهد الدولة الحديثة بكثرة . ولعل بعض هذه المواد كانت تأتى عن طريق تجارى غير مباشر ، من أقاليم تقع جنوبى الحدود المصرية . فكان العاج يجلب أسنانا ، وخشب الأبنوس يجلب كتلا .
وفى تواريخ حروب تحتمس الثالث نرى أن العاج والأبنوس ، كانا يوردان بوجه عام بصفتها جزية فقط من (كوش) .
وتحدثنا لوحة وجدت فى (جبل برقل) التى أقامها تحتمس الثالث فى (نباتا) أنه كان يرسل من الجنوب خشب السفن المعد للتركيب ، وكان هذا الخشب من الدوم والسنط . ومن الجائز كذلك ان ما نجده مذكورا فى قوائم الجزية فى تواريخ تحتمس الثالث من السفن المحملة بالمحاصيل من السودان كل سنة يصنع هناك ويقدم بوصفه جزية .
هذا ولدينا نوع أخر من الواردات من الجنوب تجده مذكورا فى جزية النوبة ، واعنى به ريش النعام وبيضه . وكان الريش يستعمل حلية فى لباس الرأس ، وفى صنع المراوح . وكان البعض يستعمل لصبغ الخرز منذ أقدم العهود حتى الأسرة ١٨ بكثرة . وكانت مصر تهتم بقشر البيض هذا ، لأنه

كان يمثل سلعة هامة فى تجارة الأراضى الشمالية • وعلى ذلك كان الجزء الأعظم من واردات بيض النعام الآتى من الجنوب ، يصدر ثانية الى الشمال

ومن المواد التى لاتخلو منها السلع ، التى كانت تقدم جزية للفرعون الفهود وجلودها ، التى كانت تأتى من بلاد (كوش) • فالفهد الحى كان يستعمل أحيانا للفرجة وأحيانا يدرب على الصيد والقنص ، وأما جلده فكان يستخدم نوعا من الملبس للكهنة •

كذلك الزراف والقردة ، وكلاب الصيد والماشية ، وجدت من بين السلع الخاصة بالجزية • لكن مما يؤسف له أن المناظر التى وجدت على الآثار لاتقدم لنا الا نماذج من المحاصيل المختلفة ، فلا ننتظر منها أن تعبر عن مقدار الجزية ولكننا استطعنا أن نلحظ من الاحصاء ، أن عدد المواشى التى وردت من كوش ، كان أكبر من التى وردت من واوات ، وذلك فى عهد تحتمس الثالث ولا نستطيع أن نرجع ذلك الى نشاط فى تربية المواشى حدث فى كوش ، أو الى سبب آخر ، ومع ذلك فان هذا الاقليم الشاسع ، لابد أن يكون معدل عدد الحيوان فيه على ما يظهر عظيم من حيث النسبة المئوية • وعلى اية حال فان نقطة الارتكاز فى هـذه المحاصيل كانت فى الجزء الجنوبى من الاقليم السودانى •

وعلى ذلك نرى أن المصرى بضمه هذه البلاد الجنوبية ، أصبح فى يده ما يسيطر به على احتكار التجارة التى كانت هامة للبلاد الشمالية • ويضاف الى ذلك المبادلات التجارية المصرية ، المحاصيل الثمينة مثل الذهب ، والمحاصيل الخاصة بافريقية مثل السن وخشب الأبنوس ، ومنتجات النعام أى ريشها وبيضها • ومن ثم أصبحت لمصر مكانة ممتازة فى شرقى البحر المتوسط ، لا بفضل محاصيلها الخاصة فحسب ، بل كذلك بالدور الفاصل ،

الذى كانت تقوم به موارد الثروة الغنية ، التى كانت تستولى عليها من بلاد النوبة •

٤ — آلهة بلاد النوبة

ان ثالوث الآلهة الذى يعبد فى جهة الشلال الاول وهم : خنوم وسانت وعنقت ، يصادفنا فى عهد الدولة الحديثة فى مناظر الشلال الثانى فى (بهين) فنجد أن الآلهتين الأخيرتين تقومان بدورهما الهام هنا باسم سيدتى الفنتين الجنوبية ، وكذلك نجدهما بنفس اللقب فى معبد «فرس» ونجد الاله «خنوم» يظهر فى جرف حسين والدر وأبوسمبل وصلب ،غير أنه لا يظهر بوصفه الاله الرئيسى ، كما هو الحال فى «قمة» «شكل ١٢»

أما الآلهة الرئيسية فى المعابد النوبية • فكانت آلهة الدولة فى مصر فكان «آمون رع» مثلا فى « نباتا » هو الاله الرئيسى ، وكذلك فى أبى سمبل كان « آمون رع » يسمى سيد عرش الأرضين ، والذى يسكن الجبل المقدس فى «نباتا» ونجد الآلهة ،الذين كانوا يسمون باسم«حور» فى « واوات »، يلعبدن دورا هاما فى بلاد النوبة السفلى •فالاله «حور» رب « تاستى » ، كان يأخذ اشكالا مختلفة فيها ، وفى أماكن أخرى كثيرة فى بلاد النوبة السفلى « شكل ١٢ »

ومما يطيب ذكره هنا أن عبادة الحاكم أو الفرعون ، كانت تلعب دورا عظيما ، وكانت هذه العبادة مباشرة خلافا لما كان فى مصر ، اذ كانت عبادة الآلهة مرتبطة بالأحوال السياسية • فعندما قدس تحتمس الثالث ،الملك سنوسرت الثالث بوصفه الاله الخاص ببلاد النوبة ، دل ذلك على منهاج سياسى ، كما هو الحال غالبا فى بناء ديانة الدولة • ومن المحتمل ، أن هذا



بعض آلهة بلاد النوبة

العمل لم يكن تجديدا من الملك تحتمس الثالث ، بل كان احياء للماضى ، وذلك لأنه قد وجدت طوابع أختام فى (ورنرتى) باسم (سنوسرت الثالث) من بعد عهد الأسرة ١٢ . ومن أجل ذلك يعتقد الأثرى (رزنر) ، أن تحتمس الثالث لم يأت بجديد ، بل أحيا الماضى . ومن هذه الوجهة يمكن أن تفسر بوضوح أن (سمنة) و (ورنرتى) . كانتا من الأماكن الهامة بعبادة هذا الاله .

وقد خطا أمنحتب الثالث خطوة الى الامام ، فأسس فى (صلب) عبادة لصورته الحية على الأرض . وقد أقام لزوجته المؤلهة معبدا فى (سدنجا) . ولم يكن الها محليا كالآلهة الآخرين ، بل كان الها حاميا لكل بلاد النوبة ولا نعلم أنه فعل ذلك لكى يقوى من سلطانه السياسى فى تلك البلاد ، أو كان الغرض حب الظهور ، الذى كان يبحث وراءه أمنحتب الثالث .

هذا ولم يقف أثر هذا الفرعون فى هذا الاتجاه الكثيرون من أخلافه ، ولم نكد نعرف من هؤلاء الا « توت عنخ آمون » ، الذى على ما يظهر أله نفسه مدة حياته فى (فرس) .

ورمسيس الثانى لم يقتصر على أن يقيم لنفسه معابد بل تعدى ذلك الى اغتصاب آثار كبيرة ، من آثار أسلافه ونسبها لنفسه . وهناك نجد أن الاله هو صورته (أى صورة رمسيس) الحية على الأرض . وهذه الصورة وجدت فى معابد (السبوع) و (جرف حسين) و (أبو سمبل) و (أكشه) (شكل ١١) .

٥ ـ خدمات أهل النوبة فى مصر

عندما أصبحت بلاد السودان جزءا لا يتجزأ من مصر فى عهد الدولة الحديثة ، أخذ الفراعنة يسوقون أعدادا غفيرة من هؤلاء النوبيين الى مصر ، ويستغلون الرجال منهم فى زرع الأرض وغسل الذهب . اما النساء فكن يعملن غازلات أو ناسجات .

وكان أكثر خدمة النوبى بوجه عام يستخدم فى فرقة الرماة ، كما كان يستعمل جنديا يحمل الدرع ويسوق العربة . وكان يمتاز الجندى النوبى بملابسه فكان يلبس قميصا مصريا ، لا يختلف عن غيره من الجند المصريين ، الا انه كان يضع على رأسه ريشة ، وأحيانا كان يلبس قميصا طويلا له هدابة من الامام . كذلك كان يمتاز بالوشاح ، الذى كان يتشح به على كتفه ، والقرط الكبير الذى كان يتحلى به . وهذا اللباس نشاهده ثانية فى عهد (توت عنخ آمون) ، كما نشاهده فى عهد الرعامسة .

ولم تكن أعمال رجال الشرطة من النوبيين قاصرة على حفظ الأمن والنظام ، بل كان لهم كذلك نشاط فى جمع الرديف والضرائب . وقد وجدنا فى نقوش رئيس شرطة (طيبة الغربية) أنه فضلا عن عمله كان مكلفا بجمع أموال ضياع الملك . ونصادف كذلك نوبيين فى مصر مقسمين طوائف عرفوا بأنهم حراس للملك . هذا فضلا عن وجود فرق نوبية فى جيش الفرعون . وتدل الأحوال على أن معظم الجنود النوبيين ، كانوا أحرارا حتى اننا نعلم من نقوش عصر الرعامسة المتأخر أو هؤلاء الجنود النوبيين كان

لهم عبيد ، وهذا ما يتفق مع الجنود الاحرار وحدهم .

وقد كشفت الآثار عن أفراد نوبيين ، كانوا يشغلون وظائف عالية فى بلاط الفرعون . فقد كشفت مقبرة (ماى ـ جر ـ برى)فى وادى مقابر الملوك التى ترجع الى عهد الملكة حتشبسوت . وكل الأشياء التىوجدت بها توحى بالتسليم بأنها مقبرة نوبى ثم ان مقبرته الغنيـة بمحتوياتها ، وماعرفناه من الوظائف الكبيرة التى شغلها . كل هذا يدل على أن هذا الشخص كان يتمتع بحظوة عند الفرعون .

وهنال أمثلة أخرى كثيرة نبين بوضوح أن مجال النوبى فى مصر قد هيأ له فرصا واسعة ، أمكنه بها ان يتصل بالملك مباشرة ، ويصل الى أعلى مراتب الدولة ولا يمكنا القول بصفة قاطعة اذا كانوا النوبيون قد وصلوا الى هذه المراتب بطريق الاستثناء أو إذا كان هـذا الأمر كثير الحدوث ، وبخاصة فى العهد المتأخر من تاريخ البلاد .والأرجح انالنوبى كان يتولى هذه الوظائف فى حالات كثيرة ، وبخاصة بعد أن أصـبح متمصرا تماما ، ولا فرق بينه وبين المصرى نفسه فى كل الأحوال .

ونرى أن خير ما يختتم به الكلام عن عهـد الامبراطورية المصرية فى السودان هو ما قاله الأستاذ مندور المهدى : « .. كان عهدا بلغت فيه بلاد السودان أقصى درجات رقيها .. ففىهذا العهد ازداد رخاء البلاد، واتسعت التجارة بين البلدين ، وطبعت حضارة السودان بالطابعالمصرى الخالص فى جميع مرافقها . وسنرى أنه عندما يكون النوبيون دولتهم يضعون أسسها على هذه الحضارة المصرية ، بحيث لانكاد نفرق بينهم وبينالمصريين، اذا استعملوا الكتابةالهيروغليفية والمعابدالمصريةوالآلهة. وقد أتى هذا الأستعمار المصرى (؟) بفوائد كثيرة لأهل بلاد السوداناذ

أثار الوعى القومى ونبه أهل السودان الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها ، خصوصا لما رأوا المصريين يستغلونها ويشترون مناجم ذهبها ، حتى لم يعد غريبا أن يستغل أهل السودان أول فرصة سانحة للبحث عن حقوقهم الشرعية واستقلالهم ببلادهم ، وقد وجدوا الفرصة سانحة فى ضعف الامبراطورية المصرية فحرروا بلادهم وكونوا حكومتهم الوطنية » .

الفصل الخامس

مملكة نبتة (نباتا)

حالة مصر قبل الفتح النوبى

رأينا فى الفصول السابقة كيف زاد نفوذ الكهنة حتى تمكنوا من حكم مصر حوالى ١٥٠ سنة ، بعد وفاة الملك رمسيس ١٢ . وفى خلال هذه المدة تمكن اللوبيون أن يبسطوا نفوذهم بسهولة على الوجه البحرى ، بطريق المهاجرة السلمية . ومما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد ، واستطاع قائد منهم يدعى « شيشنق » فى عام ١٩٤٥ ق.م أن يقضى على الأسر الحادية والعشرين ، ويؤسس أسرة جديدة ، هى الثانية والعشرون .

وكان مقر حكومته « بوسطة » فى شرق الدلتا . ولما كانت البلاد فى حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن بنى عمارة عظيمة بأنقاض عتيقة . وكان الوجه القبلى فى هذا العهد منقسما الى امارتين : امارة اهناس الواصلة الى أسيوط جنوبا ، وامارة طيبة الممتدة من أسيوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ، ويرجح أنها كانت تشمل النوبة أيضا . وعليه فقطرا هذه حاله يسهل شبوب الفتن فى اماراته الثلاث فى أى وقت بمجرد زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو « شيشنق الأول » الذى تمكن من اعادة نفوذ مصر الى فلسطين .

ولما توفى شيشنق سنة ٩٣٠ ق.م خلفه ابنه أوسركن الأول ، الذى أخذ يوطد نفوذه فى كل البلاد تارة بالهدايا والتبرعات للمعابد ، وتارة اخرى ببناء القلاع الحصينة .

ولا جدال فى أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصلية فانهم حافظوا على الألقاب والعادات الفرعونية التى ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين ، وذلك رغم أنهم من البربر وأنهم شديدو المخالفة للمصريين • وليس أقوى برهانا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الحوش العظيم الذى شيده أسركن الثانى بتل بسطة احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية جريا على عادة المصريين القدماء ، وفى أواخر الحكم الليبى لمصر انقسمت البلاد الى عدة امارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا ، أى أن حالة مصر رجعت الى ما كانت عليه قبل الأسرات وشاء القدر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون هم الأثيوبيون •

٢ ــ سيادة آثيوبيا على مصر :

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تنيف على ألف وثمانمائة سنة • أما ما بين الشلالين الأول والثانى فبقى تحت الادارة المصرية مدة تقرب من ألف سنة • وقد تقدم القول بأن تلك البلاد انصبغت بالصبغة المصرية تماما • فشيد بكل مدينة فيها معبد مصرى عظيم ، وعبدت بها المعبودات المصرية فى عهد رمسيس الثانى وبالرغم من محافظة أهالى النوبة على لغتهم فان اللسان المصرى صار اللغة الرسمية وقتئذ بتلك البلاد ، وازداد انتشاره بين الأهالى بزيادة هجرة المصريين اليها •

ومنذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها لما رأوا المصريين يثمرون أعالى النوبة الخصبة ، ويستغلون مناجم الذهب بأسفل النوبة • زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغرافى • على الطريق التجارى

العظيم بين مصر والسودان أو ضح للنوبيين ، مع الأسباب السالفة ،عظم شأن بلادهم ، فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها ، ويلاحظ أن الغارات العرضية التى شنها زنوج افريقية وغربى الصحراء الشرقية ،على النوبة ، لم تؤثر مطلقا فى نمو البلاد ورقيها اقتصاديا

والمعروف أن شيشنق الأول حافظ على النوبة ، كما ورد أن رئيس كهنة آمون ، وهب الى آمون ذهب النوبة ، ولذلك يرجح أن اقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ ق م) . وكانت بلاد النوبة على اتصال تام بطيبة ومعبد آمون لمدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك معبد آمون كان صاحب الحق فى مناجم الذهب النوبية ، التى سميت وقتئذ « أرض آمون الذهبية » ابتداء من نهاية حكم الأسرة ١٩ . وفى أواخر الأسرة العشرين ، أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على لنوبة . بهذه الطريقة أخذ حكام طيبة يبسطون نفوذهم على النوبة مائةسنة منذ أواخر القرن ١٣ ق.م بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الاقليم ٢٥٠ سنة . ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة ، وذلك فى عهد الأسرة ٢١ ، لما أبعدوا اليها أمراء طيبة المنافسين لهم .

من هذا يتضح أن شلالات النوبة ، كانت حاجزا حصينا لكل من يلتجىء اليها من طائفة كهنة طيبة ، وأفراد أسرهم ، فرارا من قسوة وعسف المصريين .

وبما أن مثل هذا القرار لا يسجل عادة على الآثار ، نستبعد حصولنا على معلومات بصدده .

والمعروف أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ظهرت فى أفق التاريخ بالنوبة

مملكة كاملة عاصمتها (نبتة Nepoto) ، الواقعة أسفل الشلال الرابع بقليل • وبديهى أن نبتة كانت حصنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثانى ـ أى قبل العصر الذى نحن الآن بصدده بسبع مئة سنة تقريبا ـ وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان ، لذلك كانت (نبتة) ، أبعد المراكز فى المملكة المصرية ، وآمنها من هجمات الشمال •

ويلاحظ أن المملكة النوبية المذكورة ، جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لامارة آمون الطيبية ، وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى ، شديد التدخل فى شؤون حكومتها ، بدرجة فاقت تدخله فى مصر ، حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم • ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجيا • واعتقد اليونانيون خطأ أن أثيوبيا سبب حضارة مصر لأنهم شاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبار والاعجاب بالنوبة • وما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك أثيوبيا نحل لنفسه جميع الالقاب الفرعونية « كسيد القطرين » ، مع أنه لم يحكم مصر ، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصريا • لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل بـه بسرعة اسما نوبيا صميما ، وبقى الاسم الرسمى الملكى والالقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة • وشيد ملوك أثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى ، وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيرغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا ، كما فعل قدماء المصريون • ثم انهم زخرفوا جدران المعابد بالدعوات كمعبد طيبة • فثبت بذلك بلامراء ، أن هذه المملكة النوبية مصرية الأصل مصبوغة بالصبغة الطيبية وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثريين لا يشاطروننا هذا الاستنتاج •

وظل تاريخ ملوك (نبتة) لانعرف شيئا عنه على وجه التحقيق ،حتى أماط الأستاذ (ريزنر) اللثام عن معميات هذا الموضوع ، فكشف ست

جبانات ملكية تقع كلها فى محيط مدينة (نبتة)ومحيط مدينة (مروى) الأولى واقعة أسفل الشلال الرابع ، والثانية فى أعلى الشلال الخامس ، وينسب لكل منها ثلاث جبانات ، والجبانات الملكية الثلاث التى كشف عنها فى منطقة (نبتة) هى :

١ ــ جبانة (نورى) وتقع على مسافة ميل غربى النيل ، وعلى مسافة عشرة أميال شمال (جبل برقل)

٢ ــ جبانة (نورى) وتقع على مسافة ميل جنوب النيل ، وعلىمسافة ستة أميال جنوبى (جبل برقل) .

٣ ــ وبرقل حيث توجد مجموعتان صغيرتان من الأهــرام ، وتقــع بالقرب من (جبل برقل) فى الجنوب والغرب .

وفى جبانة (الكورو) كشف (ريزنر) عن أهرام أربعة من فراعنــة الأسرة ٢٥ هم . بعنخى وشبكا وشبتا كاثم تاتون آمون . وبهذا أصبح معروف لنا أربع مقابر لأربعة ملوك حكموا مصر وكوش ، وهؤلاء هم المعروفون بملوك الأسرة ٢٥ . ثم كشف عن قبر جدهم (كشتا) فاتح مصر . ومن ذلك نعرف ان ملوك هذه الاسرة قد وطدوا حكمهم فى كوش قبل عهد بعنخى . ومن هذه البلدة النائية (الكورو)أخذ ملوكها يفتحون ويحكمون مملكتهم العظيمة . التى امتدت شهرتها الى كل أنحاء العالم القديم المتمدين . فقد كان يقوم من الكورو البريد باسم ملك الكوش الى عواصم غرب آسيا . وقد عثر فى السجلات الملكية فى (نينوى)، عاصمة آشور على طابع خاتم من الطين باسم الملك (شبكا) منذ عدة سنين ، ومن المحتمل أن يكون هــذا الخاتم ، جــزءا من رســالة الملك (شبكا) الى عاهل آشور (سرجون الثانى)

وأهم ما يلاحظ فى جبانة (الكورو) أن المقابر فيها كانت على الطراز الهرمى الذى له طريق ذات سلم . واتجاه المبنى كان نحو الغرب (على الشاطىء الايسر للنيل) ، ثم فصل مقابر الملكات عن مقابر الملوك . وكان المتوفى يوضع مضطجعا على جانبه الأيمن ، بركبتيه المطويتين بعض الشيء ، ورأسه نحو الشمال . ووجهه نحو الغرب .

وكانت مقبرة الملك بعنخى عبارة عن حفرة وسطها مقبب خارج . ويلاحظ فى هذه المقبرة ، أن عمق حجرة الدفن ، وحجم الأحجار التى بنيت بها الخارجة ، جعلت الموميةوالقربان فى خطر ، ولكن لتقليل هذا الخطر عمل سلم جسن صغير قطع فى الصخر من الجهة الغربية لحجرة الدفن حيث يوصل الى باب صغير فى الصخر ، وكان قبر بعنخى هو الأول من سلسلة طويلة من المقابر الملكية ذات السلالم ، التى أقيمت فى بلاد كوش .

وتدل مبانى مقبرة شبكا على تقدم محس عن مبانى مقبرة بعنخى ، فلم تظل بعد حفرة فى صورة حجرة ، بل أصبحت حجرة منحوتة من الصخر الصلب ، ولها سقف مقطوع كذلك فى الصخر مقبب على غرار سقف قبر بعنخى . هذا الى أن السلم صار أجمل صنعا وأكثر عمقا .

ويدل بناء قبر شبتاكا على تقدم جديد فى فن العمارة ، اذ نجد السلم ينتهى عند بداية الممر الذى حول الى دهليز له سطح أفقى وسطح منبسط .

ويأتى بعد ذلك فى الترتيب الزمنى هرم (نورى) الأول ، وهو قبر الملك تهرقا ولعله لم يبنه فى (الكورو) لأنه لم توجد مساحة كافية فى جبانة الملوك لاقامته . وهذا الهرم يحوى عددا من الحجرات والدهاليز ، التى أحكم نظامها تحت الأرض مما جعل منظره لاول مرة يختلف عن المقابر الملكية التى سبقته . ولكن عند فحصه بدقة ظهر أنه لا يختلف كثيرا عن مقبرة (شبتاكا) سلفه .

وقد خلف تهرقا فى الحكم الملك تاتون آمون ، ابن الملك شبتاكا ،وقد عاد هذا العامل الى الكورو ، حيث أقام قبره هناك على الجانب الجنوبى لهرم جده شبكا ، وقد نجح فى بناء هرم صغير بين هرم جده ، وبين الوادى الجنوبى ، ويلاحظ أن هذه المقبرة تعد صورة مطابقة للتصميم الأصلى الذى نشاهد انه قد نفذ فى أقدم مقبرتين ملكيتين فى نورى • وتتألف كل منهما من سلم وحجرة استقبال صغيرة ، وثلاث درجات ، وحجرة دفن كبيرة مستطيلة الشكل •

وقد أقام أتلازسا خلف تاتوتآمون فى نورى مقبرة من هذا الطراز الذى يشمل حجرتين • ولكن يلاحظ أن حجرة الاستقبال وحجرة الدفن كانتا على مستوى واحد •

والتغير الوحيد الذى نلحظه فى مقبرته كان ، بلا شك سببه الفقر ، وتولى بعده الملك سنكا منسكن ، وكان ملكا ثرياقويا ، أقام مبانى كبيرة فى (جبل برقل) ، وكان حبه للترف ظاهرا فى كل نواحى قبره • واذا استثنينا الملك بعنخى نجد أنه الملك الوحيد الذى استعمل الصل الملكى فى تماثيله • وهرمه يعد أكبر هرم أقيم بين أهرام الملوك الذين سبقوه عدا هرم تهرقا ، الذى يبلغ حجمه ٢٨ مترا مربعا • وقد قلده كل عظماء الملوك ممن خلفوه الى ان قلل الملك امانيا ستبارقا الحجم التقليدى للهرم وجعله ٢٦ مترا وستين سنتمترا وقد استعملت الجدران لينقش عليها المتون الجنازية ، التى تسمى الاعترافات بعدم ارتكاب ذنوب ، وهى جزء من كتاب الموتى ، وتشمل الفصل الخامس والعشرين منه •وقد ظل هذا الطراز من الهرم مستعملا مع بعض تغييرات طفيفة حتى القرن الأول قبل الميلاد ، وهو الطراز الذى وجدناه فيما بعد فى بلدة (مروى)

ومن ثم يمكن تتبع التطورات الطبيعية للهرم ، الذى يتألف من ثلاث حجرات وسلم ، وذلك من أول المقبرة التلية الشكل القديمة فى (الكورو) ، وهى التى تطورت الى مقبرة تلية الشكل مكسوة بالحجر ، ثم الى المصطبة القديمة المعروفة فى عهد الدولة القديمة ، ثم تطورت الأخيرة الى مقبرة بها حفرة للدفن ، ثم تحولت هذه المصطبة الى مقبرة ذات حفرة وسلم ، وهى التى ابتدعها بعنخى . ثم تطورت الاخيرة الى هرم أقامه شبكا له حرة واحدة وسلم . وقد حذا حذوه شبتاكا ، ثم الى هرم له حجرتان وسلم كالذى ابتدعه تهرقا ، وقفا أثره كل من تاتون آمون «أتلانرسا ، واخيرا قبر سنكا منسكن وهو القبر الهرمى الأول الذى أصبح طرازه تقليدا متبعا .

ومن الحقائق التى درسناها يمكن بناء تاريخ الأسرة التى دفن أفرادها فى جبانة « الكورو » ففى حين كان اللوبيون الشماليون يدخلون مصر السفلى ، كان اللوبيون « الجنوبيون أى « التمحو » يزحفون على وادى النيل فى كوش آتين بلاشك من طريق الواحات القديمة ، التى استعملها فى خلال السنوات القلائل الأخيرة العرب ، الذين كانوا يهاجمون مديرية دنقلة .

ومن المحتمل أنه فى عهد شيشنق الأول ، أو بعده بقليل ، جاء الزعيم النوبى الذى دفن فى المقبرة التلية الشكل فى جبانة (الكورو) ، وهناك وضع رحاله وأسس لنفسه ضيعة فى بلدة « الكورو » ، القريبة من نباتا . ويدل ما بقى من محتويات قبره ، على أنه كان صاحب ثروة ضخمة . والواقع أن ثروة بلاد كوش الرئيسية كانت تنحصر فى منتجات الذهب ، التى كانت تزخر بها بلاد النوبة السفلى . وما تحصل عليه من طرق التجارة بين مصر والجنوب عامة . ولابد أن هذا الرئيس هو وأسرته كان صاحب الكلمة فى « الكورو » . وبعدما انتزع هذه السلطة من نائب كوش

المصرى أصبح كسائر الزعماء الليبيين فى وادى النيل وقتئذ تابعا اسميا لملك مصر الليبى الأصل • ويدل التطور الذى وجدناه فى مقابر هـذه الأسرة على أن أعظم نمو فى سلطانها قد حدث فى الأجيال الثلاثة الأولى من تاريخها ، وبعد ذلك لم نلحظ هذا التقدم الا فى الجيل السادس • وذلك لأننا لم نجد تقدما محسا فى تطور المصاطب من أول الجيل الثالث حتى الخامس • والظاهر أن هذه الأسرة كانت قد حصلت على السيطرة فى بلاد كوش • ثم تمهلت بعد ذلك قبل الزحف على مصر •

(٣ ـ ملوك نبتـه)

الملك كشتا : ولا نزاع فى أن « كشتا » هو الذى قد بدأ الزحف على مصر ، وقد كان يحمل لقب ملك ، ووصل فى فتوحه الى طيبة حيث جعل ابنة « أوسركون الثالث » التى ، كانت « المتعبدة الالهية » فى طيبة أو بعبارة أخرى الحاكمة المطلقة بها ، تتبنى ابنته (امنردس) لتكون خلفا لها فى ملك طيبة ، غير أنه ليس من الواضح أن كشتا ، قد كسب حكم مصر العليا بالسيف او بالمعاهدة والتزاوج مع الأسرة الحاكمة ، وذلك لأننا لانكاد نعرف الكثير عن حكم الأسرتين ٢٢ : ٢٣ الليبيتين فى مصر • ولا نزاع فى أن كشتا كان معاصرا أوسركون الثالث وتاكيلوت الثالث • اللذين حكما معا ، ولكن فى نباتا لم نجد الا اسما واحدا له اتصال بالاسرة ٢٣ وهو القائد (باشدت باست) بن شيشنق الرابع ، وكان هـذا معاصرا لسلف أوسركون الثالث ، ومن ثم كان من الجيل الذى سبق كشتا ، وقد عثر على قطعة من اناء من المرمر نقش عليها اسمه (فى نورى) • وقد أحدث وجودها فى هذا البلد بعض الظن ، بأنه كان متصلا بصلة الزواج بالأسرة الليبية التى كانت فى (الكورو) ، وعلى ذلك فمن الجائز كما يقول (ريزنر) أن ادعاء الكوشيين لعرش طيبة كان مبنيا على هذا الرغم أو ما يماثله •

ومن المحتمل أن يكون (آلارا) هو جد الأسرة الكوشية ، ولم يعرف قبره حتى الآن وهو أخو كشتا الأكبر ، وقد جاء ذكر اسمه على لوحة (تايبري) الموجودة الآن بمتحف الخرطوم ، كما جاء على ثلاث لوحات عثر عليها فى (كارا) من الملك تهرقا ، والملك كشتا هو والد كل من الملكين بعنخى وشبكا ، وقد وجد اسمه على قطعة خزف مطلى فى الكورو .

ومما يلفت النظر ، أن الآثار التى ذكر عليها اسم الملك كشتا بمفرده نادرة جدا اذ فى غالب الأحيان نجده مذكورا مع اولاده وبخاصة مع ابنته (أمنردس) فى معبد (أوزير) بالكرنك ، وهى التى حفظت لنا اسـمه ، وتدل الاحوال أن كشتا هذا لم يقم بدور هام فى تاريخ مصر الا تولية ابنته فى منصب (المتعبدة الالهية) بعد وفاة (شبنوبت) ابنة الملك (أوسركون الثالث) . أما من حيث الاعمال الحربية وغيرها فلم نعثر له على شيء فى طيبة ولا فى غيرها ، وأهم الآثار التى وجد عليها اسم كشتا هى :

قطعة من لوح مستدير أعلاها ، مصنوعة من الجرانيت عثر عليها فى الفنتين بالقرب من بوابة الاسكندر المصنوعة من الجرانيت ، ونجد فى جزء منها قرص الشمس المجنح ، يدل منه الصل الملكى على اليسار ، وله جناح واحد ، وعلى اليمين نجد صورة العين السليمة . وفى أسفل هذا المنظر كان يوجد فى الأصل على اليمين الهان « خنوم — رع » رب الشلال ، ولكن لم يبق من صورته الا جزء صغير ، والالهة (ستت) سيدة الفنتين ، ولم يبق من صورتها شيء قط ، ويقدم لها الملك على ما يظهر مذبحا عليه نار ، ولم يبق من صورة الملك الا الرأس الذى يرتدى (تقية) محلاة بصل ملكى واحد . وقد صور المثال الملك بأنف أفطس ، وذقن غائرة ، وشفتين غليظتين وبارزتين ، وبالاختصار نلحظ فى صورته أنه مثل شبه زنجى ، وهو يشبه كثيرا صورة طهرقا .

ولم يذكر هذا الملك (كشتا) بعد ذلك على أى نقش أو لوحة الا بالاشتراك مع أولاده وبخاصة مع ابنته (امنردس) المذكورة .

أسرة كشتا : كانت زوجته تدعى (بياتما) وهى أخته ، وقد أنجبت منه بعنخى وشبكا ، وقد صار كل منهما على مصر والسودان . أما بناته فهن : آبار تزوجت من أخيها بعنخى وأنجبت له (تهرقا) ، ثم (خنسا) تزوجت من أخيها بعنخى . وعثر لهذه الملكة على مائدة قربان من الجرانيت فى سلم قبرها (بالكورو)،وهو محفوظ الآن بمتحف (بوستن)، كذلك وجد لها مائدة قربان بحجرة الدفن . كما وجدت لها أوان من المرمر ، هذا بالاضافة الى تور من حجر ستياتيت محفوظ فى نفس المتحف السابق .

ومن بناته كذلك الملكة (بكساتر) وقد توزجت من اخيها بعنخى وقد تبنتها الملكة (بياتما) لأنها بنت زوجها (كشتا) .

ثم له (أمنردس) المتعبدة الالهية ، وقد وجدت لهذه الابنة آثار منها وجد اسمها واسم والدها كشتا على نقش دون على صخرة فى جهة الشلال الأول جنوب أسوان . ووجد لها لوحة فى مدينة (هابو) عليها اسمها واسم والدها ، واللوحة محفوظة بالمتحف المصرى . كما وجد لها تمثال من الجرانيت الرمادى طوله متر . وقد مثلت عليه (أمنردس) واقفة على قاعدة مرتدية ثوبا يفصل أعضاء جسمها ، وبيدها اليمنى منديل وفى اليسرى وردة . وترتدى على رأسها التاج الذى تلبسه عادة الزوجات الالهيات ، وتتحلى بأسورة وعقود حول رقبتها . والتمثال يستند على لوحة نقش عليها : « الأميرة صاحبة الحظوة العظيمة والمديح المستفاض، وربة الرشاقة والحظوة والحيا ، سيدة كل ما يحيط به (آمون) ،وسيدة التاج ذى الريشتين ، وجميلة اليدين .. »

وهذا التمثال جميل المنظر صناعته متقنة جدا .

ب ــ الملك بعنخي أ (٧١٦ ق٠م): والظاهر أن بعنخي نجل الملك كشتا حكم حوالى سنة ٧٤١ ق٠م وأخذ يمد نفوذه الى مصر ،والثابت أن بعنخي استولى حوالى سنة ٧٢١ أو ٧٢٢ ق٠م على صعيد مصر حتى مدينة اهناسة جنوبى الفيوم ، ووضع جنوده النوبية فى المدن الهامة . وفى هذا الوقت كانت سلطة الملك الليبى أوسركون الثالث القائم فى بويسطة (تل بسطة) منحصرة فى امارته ، ومحاطة بأعداء كثيرين مــن أمراء الوجــه البحرى أهمهم (تفنخت) أميرصا لحجر غربى الدلتا .

وفى السنة الحادية والعشرين من حكم بعنخى بلغه أن تعنخت تغلب على كل أمراء غربى الوجه البحرى ، فأصبح بذلك ملكا على الوجه البحرى ، والجزء الأسفل بالوجه القبلى .ولم يقاوم فى الوجه القبلى الا امارة اهناس .

بعد ذلك بلغ بعنخى أن (نامارث) أمير الأشمونين سلم الى (تفنخت) فأرسل بعنخى جيشا قويا تحت قيادة ضباطه الى الجهات الشمالية بقصد وقف تقدم تفنخت جنوبا وحصار الأشمونين .

ويقول بيعنخى وقد نصحت رجالى قبل توجههم للقتال بعدة نصائح فقلت لهم : « لاتهاجموا أثناء الليل هجوم المتلاعبين ، بل اهجموا متى رأيتم أن العدو أعد جيوشه وخيوله للمسير اليكم . واذا قامت الحرب فاعلموا ان «آمون» هو الذى أرسلنا اليهم . فاذا وصلتم مدينة طيبة ، فاغتسلوا فى مياه معابد آمون واسجدوا له وقولوا « ثبت أفئدتنا على الحق لنحارب فى ظل سيفك » ففعلوا بما أوصاهم به ، وزحفت قوات بيعنخى نحو الشمال منحدرين فى النيل حيث تقابلت مع أسطول تفنخت النيلى الكثيف ، ودارت معركة بين الطرفين ، أظهر فيها الفريقان شــدة

البأس وغاية الحرص ،الا أنه ما لبث أن تطرق الوهن الى عزائم المصريين ، فتغلب الأثيوبيون عليهم ، واستولوا على الكثير من سفن تفنخت ، وأسر عددا كبير من رجاله .فازداد نشاط الأثيوبيين ،واستأنفوا الزحف شمالا متبعين فى سيرهم بحر يوسف «على الأرجح » حتى بلغوا مدينة اهناس ، فوجدوا قوات تفنخت منهمكة فى حصارها : فهزموا تلك القوات ، واضطروها الى الفرار شمالا برا وبحرا .

وكان «ناملوث» منضما الى قوات تفنخت ،فلما انهزمت قوات الأخير، انفصل «ناملوث» عنه وصمم على الذهاب الى الاشمونين مدينته للدفاع عنها ضد النوبيين الذين عادت قواتهم ثانية عن طريق بحر يوسف الى الاشمونين وحاصرتها .

ولما علم بعنخى بهذه الأخبار ، استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى الى الدلتا ، ولما كان وقتئذ آخر السنة ، عزم جلالته على الاحتفال بعيد رأس السنة فى بلده ، ثم الذهاب الى طيبة للاحتفال بها بالعيد ثم الزحف شخصيا الى مصر . وفى أثناء ذلك كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى ، ولم تقاومهم كثيرا الا الاشمونين .

ونفذ بعنخى خطته السابقة ، فزحف بجنده شمالا فى أوائل السنة واحتفل بعيد (أوبت) بطيبة فى الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الاشمونين فوجد جنده يحاصرونها مدة أربعة أشهر أو خمسة، وشدد جلالته عليها الحصار ،وأمطرها وابلا من السهام والحجارة من فوق الاستحكامات والبروج، حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاهم، فأخذت تسلم لجلالته . وأراد أميرها أن يرضى قلب بعنخى نحوه ، فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى ، لكن بعنخى كان صلب الرأى . فأرسل ناملوت زوجته الى

زوجة بعنخى لتسترحمه لزوجها ، ونجحت هذه الحيلة ، وسلم ناملوت على اثرها المدينة وجميع خيراتها الى الفاتح النوبى ، نظير السماح له بالبقاء حيا . بعد ذلك تفقد بعنخى قصر ناملوت وخزائنه ، وتفقد الخيل فرآها جائعة فقال جلالته : «أقسم برع — الذى يحبنى — لئن أرى خيلى جائعة ليكونن هذا أصعب على من كل جرم ترتكبه » . بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى خزائن بعنخى .

ووصل بعنخى الى اهناس بعدما ذاقت الأمرين من حصار تفنخت لها فخرج أميرها وحيا بعنخى ومنحه كثيرا على تخليصه من هذا الحصار ثم زحفت القوات النوبية بحرا عن طريق بحر يوسف الى الدلتا ، واستولت فى طريقها على المدن المهمة الغربية التى كانت تسقط بمجرد رؤية بعنخى ولم تتجاسر مدينة على مقاومة النوبيين ، الا مدينة كيمان فارس فى الفيوم . ثم زحف غربا مارا باللاهون . وقدم ملك النوبة القرابين لكل مدينة مر بها ، وأخذ معه كل ثمين لتقديمه الى خزائن آمون .

وبلغ بعنخى منف فوجدها محصنة جيدا بقوات تفنخت الذى اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد ، والذى اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتاح ، فطلب بعنخى من المدينة أن تسلم نفسها ، لكنها أقفلت أبوابها ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فلم تنجح فجن الليل ودخل تفنخت المدينة ، وحث حاميتها على الدفاع والاعتماد على جدرانها ومئونتها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيل شرقى المدينة . وطلب من جنده هناك أن يستمروا على الكفاح ، حتى يذهب شمالا ليحضر اليها امدادات أخرى .

ولما وصل بعنخى شمال منف ، دهش لمناعة حصونها ، فأشار عليه

حينئذ بعض ضباطه أن يحاصرها . وحبذ الآخرون الهجوم والاستيلاء عليها عنوة ، بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشهد له بالبراعة في الفنون الحربية ، وتفسير ذلك أن جلالته لاحظ أن سور المدينة الغربي رفع عن مستواه حديثا ، وان السور الشرقي مهمل نوعا ، ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلد ففي جهتها الشرقية وفيها سفن الأسطول ، فأرسل بعنخي أسطولا بسرعة الى الميناء واستولى على سفنها عنوة وضمها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة الحربية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسلقها رجاله ، فاستولى على المدينة ، قبل ان يتمكن رجالها من تعزيز حصونها ، بعد ذلك حصلت في المدينة مذبحة عظيمة ، روعت في أثنائها حرمة المعابد وانتهت بنبذ تفنخت بواسطة المعبود بتاح ، والاعتراف بعنخي ملكا على مصر كما كان منتظرا .

هكذا خضع اقليم منف بأجمعه الى بعنخي ، وعلى اثر ذلك أتى أمراء الدلتا الى جلالته بالهدايا معترفين له بالسلطان والسيادة وجزأ جلالته خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح ، ثم عبر النهر وادى الصلاة بمعبد قديم ، ثم اتجه شمالا حتى بلغ مدينة عين شمس ، حيث دخل قدس الأقداس بمعبد عين شمس ، وهنالك اعترف به (رع) بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالعادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة ، وفي ذلك المكان وفد عليه أوسركون الثالث أمير (تل بسطة) المنتمي الى الأسرة ٢٣ وقدم فروض الطاعة الى بعنخي ، واعترف له بسيادة النوبة على مصر . ثم زحف بعنخي الى شرق بنها (أتريب) ، حيث أقبل عليه أمراء الدلتا (٢٥ أميرا) مظهرين الولاء والطاعة ، الا تفنخت . الذي ظل يقاوم حتى يئس ، فأرسل الى بعنخي يطلب الامان بقوله : « اكتم غيظك فاني وجل من رؤيتك لعدم مقاومتي نار حربك ، وامتلأ قلبي بفزعك ، فأسالك العفو عني ، واعلم أنك بذرت

بذورا حصدت محصولها فى ابان حصادها ، ثم أردف ذلك بهدايا ثمنية من الذهب والفضة . وأقسم يمينا مقدسة بألا يخالف امرا ، ولا يعكر لسياسته صفوا ، ولا يسىء لأحد من عماله » فسر بعنخى لذلك وعفا عنه .

وهكذا خضعت كل جهات القطر الى بعنخى الذى نزع الملك من أيدى الليبيين ، وبعبارة أخرى أضحى بعنخى حاكم مصر المطلق .

وبعد ذلك عاد بعنخى الى نبتة منتصرا مظفرا ، حيث نصب معبدها شاهدا جرنيتيا بديعا ، نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا وأظهر نفسه فيه كابن آمون ، ومذل أعدائه الشماليين . ويعتبر هذا الوصف أنقا وأصح بيان تاريخى وحربى قديم بعد أخبار حروب تحتمس الثالث ، ووصف معركة (قادش) لرمسيس الثانى . ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية .

وبعد عودة بعنخى الى نبتة ، قام تفنخت من جديد فأنشأ فى الوجه البحرى مملكة مستقلة ، ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية ، وبقى حاكما على أمراء الدلتا ثمانى سنوات . ولما توفى خلفه ابنه (أبو كوريس) مؤسس الأسرة ٢٤ الصاوية ، وذلك حوالى ٧١٨ ق.م .

أما فى الصعيد فقد ظل حكم بعنخى مبسوطا مدة قصيرة أقام فى أثنائها بعض عمارات طفيفة بمعبد « موت » بطيبة . ونقش رسومات تمثل أسطوله فى النيل مبديا فرحه لانتصاراته ، التى حازها . ومنه يتضح أن نفوذ بعنخى استمر باقيا على صعيد مصر الى مدينة اهناس ، ودلتنا النقوش أن حاكم اهناس كان قائد الأسطول النيلى لبعنخى .

ولما انسحبت قوات بعنخى اجتهد أوسركون الثالث فى ارجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين ، فبسط نفوذه على طيبة مدة يسيرة . لكن أمراء

صالحجر اخذوا ينافسون تل بسطة فى الحكم ، فاغتصب بوكوريس بن تفنخت الصاوى عرش مصر السفلى حوالى عام ٧١٨ ق٠م ، وأسس بذلك الأسرة ٢٤ ، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الاسرة ،بقدر ما تسمح به معلوماتنا عن تلك العصور ٠

الملك شبكا (٧١٦ ـ ٧٠١ ق٠م) : وبعد مامضى على رجوع بعنخى الى النوبة عشر سنوات ، أخذ ملوك نبتة يسترجعون سلطتهم على الوجه البحرى الذى كان فى حالة بؤس وشقاء ٠ والمعروف أنه لما توفى بعنخى ورثه فى الملك ابنه (شاباكا ^{S}habaka)، الذى حكم من (٧٠٧ ــ ٦٩٦ قم) ولم نهتد الى اخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، ولكن المؤرخ مانيتون ، ذكر أن هذا الملك أحرق أبو كوريس الصاوى حيا ، وبسط نفوذه على الوجه البحرى بأجمعه ، وقوى مركزه حتى أسس الأسرة ٢٥ الأثيوبية ٠ واتضح لشبكا خطورة مركز مصر ازاء آشور (١) فأرسل الى سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووعد ولاة سوريا بالمساعدة اذ هم ثاروا على سيدهم النينوى فانصاع لهم ولاة : يهوذا ومواب وادوم ، ارتكانا منهم على مجد مصر القديم ، جاهلين انحطاطها الداخلى وقتئذ ، ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد ٠

ولم يفقه من هؤلاء الولاة خطورة الحالة الا « أشعيا » حاكم ولاية يهوذا ، فقد أكد أن الاعتماد على مصر لاطائل تحته ، لأنه اعتقد أن آشور ستستولى على مصر يوما ما ٠ ولما علمت آشور بهذه المحالفة ضدها ، أدركتها بسرعة ، فانفرط عقد المحالفة وأظهر المتحالفون ولاءهم لها فى

(١) الدولة الاشورية نشأت فيما بين نهرى دجلة والفرات ، وتقدمت نحو الغرب فاجتازت جيوشها سوريا وفلسطين وخضعت لها بابل ثم أصبحت تهدد مصر بالغزو . وما لبثت أن سنة ٦٧٠ ق٠م وطردت النوبيين منها .

الحال وقد نجح سرجون الثانى (ملك آشور منذ ٧٢٢ ق٠م)فى توطيد مركزه ، رغم ثورات بابل ، واضطرابات الأقاليم الشمالية • ثم توفى سنة ٧٠٥ ق٠م فتبعه فى الملك ابنه سنخاريب، فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا فى التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان •

ولما تولى سنخاريب الملك اشتبك فى اخماد اضطرابات بابل المعتادة ، التى سببها أحد أمرائها المطالبين بعرش بابل • فقد ألب هذا الأمير كل أعداء آشور عليها • فانصاعت اليه جميع مستعمرات آشور الاسيوية الغربية ، ثم دخلت مصر هذا التحالف ، وقر قرارهم اخيرا على محاربة نينوى ولكن قبل ان يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سنخاريب فجأة فى الغرب ، مارا بفينيقيا مستوليا على قلاعها ماعدا صور ، ثم زاحفا جنوبا على مدن فلسطين العامة فعاقب عسقلون على عصيانها ثم زحف على ألتاكوا، حيث التقى بجيش التحالف ، الذى جمعه شبكا من الولاة الشماليين ، عبر عنهم سنخاريب بملوك موصرى • ولم نهتد للآن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقتئذ لكن سنخاريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمحتمل أنها لم تكن قوية جدا (شكل ١٣)

أما الجنود المصرية الذى اشتركت فى المعركة ، فلم تكن بأى حال من الأحوال جديرة بقتال جيش آشور •لعدم وجود السلطة المركزية بالقطر، ولتفوق كلمة أمراء الوجه البحرى ، وعدم اعتنائهم بأمورهم الحربية •

أما الجيش الآشورى فكان مدربا محنكا لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية •

والحق يقال ان الجيوش المصرية ، لم تلتق للان مع جيوش آشور فى معركة كبيرة ، أما الامدادات التى أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لايعبأ بها • ولما التقت القوتان السالفتا الذكـــر ،

ليديا
كبدوكيا
امد
ازطاكية
الميتانى
قوقميش
ارمينيا
نينوى
اشور
كردستان
بحر الخزر
ميديا
الفرات
عيلام
السوس
الدجلة
بيلوس
جبل الكرمل
دمشق
أجاد
بابل
غزة
اورشليم
الكش
أور
بلاد سومر
خريطة الشرق القديم

(شكل ١٣)

كان سنخاريب يقود شخصيا قواته ، وكان طهرقا بن بعنخى موكلا من الملك شبكا النوبى لقيادة القوات المصرية ولصيرورة طهرقا ملكا ــ فيما بعد ــ على أثيوبيا ، نعته اليهود فى هذه المعركة بملك ،وبديهى ان المعركة التى دارت رحاها انتهت بهزيمة المصريين كما كان منتظرا • وقد تم هذا بسرعة ، ثم أعقبه حصار بيت المقدس ، وتخريب مقاطعة يهوذا • بهذه الكيفية وقف سنخاريب كل مشاحنات الغرب ، وشتت شمل أعـدائه • وبينما هو يحاصر بيت المقدس فشا بين قواته وباء ذريع آتى اليهم مـن مستنقعات الدلتا المربوءة بالملاريا ، فحصد من جيش آشور عـددا عظيما ، وفى أثناء تلك المحنة وردت على سنخاريب أنباء سيئة من بابل ، تفيد حصول اضطرابات خطيرة هنالك • ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس •

ولا يخفى أن رجوع سنخاريب جاء بمثابة انفراج للكربة الحالة ببيت المقدس ومصر معا • وهذه هى المرة الثالثة ، التى يصل فيها جيش آشور الى الحدود المصرية ، ثم يرجع مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن فى الحساب •

أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت ثقتهما بأثيوبيا ، حتى صما آذانهما عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم ،والسبب فى ذلك انهما عرفا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم • ودليلنا على ذلك ماجاء بخطاب ضابط سنخاريب ،الذى أرسله لنواب بيت المقدس التعساء واليك ترجمته :

« لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ،واذا توكأ أحد عليها ، دخلت فى كفه وثقبتها ،هذا هو فرعون مصر ، وهذا شـأن المتكلين عليه » •

ويظهر أن شبكا ظل حاكما أمراء القطر المصرى طول حياته ، ويرجح

أنه اتفق مع سنخاريب فى محالفة ، دليل وجود ختمى هذين الملكين يجاور أحدهما الآخر على قالب لبن جهة (كيو نجيك) . وأظهر شبكا عطفا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد . ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش دينية قديمة على جدار معبد بتاح ، تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته « أمنردس » فى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بطيبة بعدما طردها أرسركون الثالث لمدة قصيرة ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبدا بالكرنك وأرسلا لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من مناجم وادى الحمامات . وتوجد بطيبة نقوش تشير الى اصلاح شبكا للمعابد هناك . ولذلك يظهر أنه أظهر عطفا واحتراما لمعابد مصر كما فعل فراعنة مصر قبله . أما امنردس فحكمت فى طيبة مستقلة استقلالا كبيرا ، والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التى أسداها شبكا لكهنة مصر فأنه شل نفوذ رئيس كهنة طيبة ، كما سيجيىء الكلام على ضعفه وعجزه بعد .

د — الملك شبتاكا « ٧٠١ — ٦٩٠ ق م » : وتوفى شبكا عام ٧٠١ ق م بعد ما حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا ويرجح أنه حكم أكثر من ذلك فى النوبة . وتبعه فى الملك ملك نوبى يدعى شبتاكا ويقال انه ابن بعنخى كما يقال انه ابن شبكا . وامتاز حكمه بالهدوء والسكينة ، لأن مستعمرات آسيا الغربية ، بقيت ساكنة لا تتحرك ضد آشور . زد على ذلك ان سنخاريب كان مشغولا فى حروبه مع مستعمراته الشرقية . ولم نعثر الى الآن على اسم شبتاكا على الآثار المصرية الا نادرا ، وانما يستدل من الحوادث التى تلت حكمه ، أنه كان ضعيفا غير كفء لمكافحة أمراء اقاليم مصر وجمع قوتهم كى يستعد لقتال أشور الذى كان ينتظر حصوله من آن لآن .

لقد وضح للعيان أن الأثيوبيين ليسوا أكفاء لتسلم مقاليد الحكم

وقد زاد هذا وضوحا فى أواخر حكم شبتاكا ، الذى انتهى حوالى سنة ٦٨٨ ق ٠م

هـ ـ الملك طهرقا ٠ « ٦٩٠ ـ ٦٦٤ ق٠م » ويجدر بنا فى هذا المكان أن نستقصى أخبار الأمير طهرقا بن بعنخى الذى ترك نبتة شابا بالغامن العمر سنة وتوجه الى مصر مع الملك شبكا على الأرجح ـ فنقول : ان طهرقا هذا ابن امرأة نوبية ، وتبدو على وجهه ملامح الزنوج ٠ والحق يقال ان هذا الامير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته بيعنخى ، من ذلك ما ذكرناه آنفا من انه قاد الجيوش المتحدة ضد سنخاريب ٠ أما كيفية جلوس هذا الأمير على العرش فلا نزال نجهلها ، لكن المؤرخ مانيتون أخبرنا أنه قاد جيشا جرارا من أثيوبيا وقتل شبتاكا ، ثم اغتصب العرش الفرعونى٠ أما الآثار المصرية فلم يعثر على ما يشير الى مثل هذا الانقلاب فيها ، وكل ماوجد على آثار تنيس أن الملك طهرقا طلب من أمه أن تحضر الى مصر من نبتة بعد ماغاب عنها عدة سنوات ، ودعاها لتسلم مركزها السامى بمصر كالأم الملكية ٠ من ذلك يستنتج أن المصريين كانوا فى انتظار غزوة آشور للدلتا ، وأن الأثيوبيين اتخذوا تنيس عاصمة لقربها من آشور ٠

واستمر طهرقا يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ١٣ سنة ، شيد فى اثنائها عمارات صغيرة بتنيس ومنف ، وأخرى اكبر حجما بطيبة ٠ وأيقن بقرب هجوم آشور عليه ، فأخذ يعد عدته لذلك ٠ ويلاحظ أن آسيا الغربية مضى عليها حوالى عشرين عاما لم تر فيها سنخاريب الذى قتله أولاده عام ٦٨١ ق٠م بعد ذلك تولى ابنه آشور أخى الدين الملك ، فأخذ يستعد لغزو مصر ، والقضاء على فرعونها كى يستريح من تدخلها المستمر فى شئون مستعمراته الفلسطينية والسورية ، فوصل بجيشه العرمرم الى حدود الوجه البحرى عام ٦٧٤ ق٠م وهناك التقى بقوات طهرقا ، الذى كان أكثر شجاعة

واقداما من سلفه • ودارت رحا القتال بين الطرفين ، وانتهى الأمر بفوز المصريين على آشور ، كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ ق•م •

بعد ذلك أخذ آشور أخى الدين يستعد فى الخفاء لغزو مصر وفى ذلك الوقت انضم ملك صور الى المصريين ضد الأشوريين ، وذلك على أثر علمه بهزيمتها الأخيرة على الأرجح • وفى عام ٦٧٠ ق•م ظهر آشور أخى الدين ثانيا فى غرب آسيا قائدا جيشه وحاصر صور وانضم اليه بعض العرب ، فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جمالهم لحمل مياه الشرب وقت اختراق الطريق • بعد ذلك التقى بجنود طهرقا ، الذى لم يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح • فدارت رحا القتال بين الطرفين ، وانتهت بفوز آشور ، وتمزيق شمل المصريين • على اثر ذلك تقهقر طهرقا نحو منف ، لكن آشور أخى الدين تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل ، فاستولى على منف وسلبها من كل ثمين ثم فر طهرقا جنوبا ، تاركا الوجه البحرى فى أيدى آشور أخى الدين الذى نظمه وضمه الى أملاكه • وذكر آشور أخى الدين أسماء عشرين أميرا عينهم ملوك النوبة على الدلتا ، وقال عنهم أنهم أتوا اليه ، وحلفوا له يمين الطاعة ، فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم ، بشرط ان يستمروا موالين له • وقد لاحظنا أن فى هذه الاسماء المكتوبة بالخط المسمارى مايشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء المتشابهة الى أسرة واحدة • وقد سبق لبعنخى أن عامل أمثال هذه الأسر سابقا وجاء بين هذه الأسماء الأمير (نيخاو) بن تفنخت ، نعت بأنه أمير صالحجر ومنف ، وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبة ، لكن هذا القول يستبعد تصديقه لأن آشور أخى الدين لم يحتفظ الا بالسلطة الاسمية على الوجه القبلى • ورجع آشور أخى الدين الى وطنه متبعا طريق الساحل البحرى شمالا مارا بصخور نهر الكلب ، فنقش عليها

لوحا أثريا ، أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يجاور الأثر الحجرى الذى تركه رمسيس الثانى المذكورة فيه انتصاراته . ولما بلغ آشور أخى الدين شمال سنجرلى شمال سوريا نصب فيها أثرا عظيما ، يمثله قابضا على أسيرين ، يغلب على أحدهما أنه ملك صور ، وعلى الآخر أنه طهرقا ، لما تبدو عليه ملامح الزنوج .

وهكذا يتضح للقارىء أن القطر المصرى حكمه الأجنبى فى عهد الليبيين ثم فى عهد النوبيين ثم أتت آشور بعد ذلك ، فبسطت نفوذها على مصر ، وبديهى أن القوة الثالثة الأجنبية متباينة تماما عن السابقتين ، وان الليبيين والنوبيين تمصروا ، وحكموا مصر كأنهم فراعنة . وأما آشور فحكمت الدلتا من دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم ، ولذلك لم يحتمل الأمراء المصريون ذلك العسف الآسيوى فحنثوا فى ولائهم الذى أقسموه لأشور ، وأخذوا يتحدثون سرا مع طهرقا ليستعيد الحكم فى الدلتا . على أثر ذلك أتى طهرقا الى الوجه البحرى ، بعد مارجع جيش آشور الى وطنه ، فاضطر آشور أخى الدين ان يعيد الكرة على مصر لكنه توفى فى أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ ق . م فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانيبال اتبع خطة والده بسرعة ، وعهد الى أحد ضباطه بقيادة الحملة الى مصر . فلما التحمت جيوش آشور بجيوش طهرقا ، فيما بين منف ، وشرقى الدلتا ، انهزم طهرقا الذى لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل سابقا ، بل فر نحو طيبة حيث تحصن . لكن الاشوريين جمعوا المدد من الوجه البحرى وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبة ، فاضطر طهرقا أن يغادرها وأن يتحصن بأعالى النيل ، عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور ، بل تركه وشأنه . ولم يثبت للآن اذا كانت آشور قد استولت على طيبة وقتئذ أم لا . لكن الثابت أن سلطة اشور بانيبال ، لم تمتد الى الوجه القبلى . ولما أراد اشور توطيد نفوذه فى الدلتا ، أخذ ولاته هناك يتراسلون سرا مع طهرقا لينقذهم

من نير اشور . وكانت هذه العصابة برياسة (نيخاو) الذى ولاه اشور أخى الدين على صالحجر ، ومعه والى تنيس ووالى سفط الحنة وأرسل فرعون اشور بمصر خبر هذه المؤامرة الى اشور بانيبال ، فأمر بارسال هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال الى نينوى . عند ذلك احتال نخاو بدهائه حتى استمال عطف آشور بانيبال عليه فصفح عنه وأغدق عليه النعم ثم أرجعه الى مركزه بصالحجر ، وعين ابنه واليا على أتريب «بنها» ، لكنه أرسل معه موظفين أشوريين لمراقبته . وقد نجحت هذه الحيلة جيدا ، فلم يظهر طهرقا ثانية بالدلتا لعدم مساعدة ولاة الوجه البحرى له لكنه بالرغم من ذلك قد أرخ كهنة بتاح بمنف تاريخ وفاة عجل من عجول أبيس سرا باحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروف بالسربيوم . فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهرقا عام ٦٦٤ ق . م

ومضى على هذه الحال عدة سنوات، كان الوجه القبلى فى أثنائها تحت سلطة طهرقا الفعلية . أما رئيس كهنة امون فى طيبة فقد أصبح الآن قليل النفوذ ضعيف السلطة . والسبب فى ذلك أن النفوذ كان هناك فى يد شخص يدعى منت محت، الملقب «أمير طيبة » أو حاكم الجنوب ورئيس كهنة مصر . والظاهر أن هذا الأمير كان قويا وثريا ، صرف أموالا طائلة فى اصلاح ماتلف من المعابد بعد الذى أحدثه الأشوريون (على الأرجح) بالرغم من فقر مصر وبؤسها . واستولى طهرقا على دخل امون بطيبة بأن عين أخته المدعوة (شب نوبت) بدل الأميرة أمنردس ، أميرة طيبة الدينية التى عينها بعنخى بطريقة مماثلة . ويعزى الى طهرقا أنه شيد أو أصلح معبدين عظيمين بنبتة عاصمة أثيوبيا ، التى عظمت وصار لها منزلة كبيرة تتناسب مع مملكتها السامية وقتئذ .

وقد بنى معبدا بجبل البرقل ، لاتزال آثاره باقية ، وهو أهم المعابد جميعا ، ويقع فى واجهة جبل البرقل الجنوبية وقد بناه باسم الاله امون والاله (مت)، ومحراب هذا المعبد منحوت فى الصخر والنقوش التى على جوانبه لا تزال بحالة حسنة . هذا وتوجد القاب طهرقا واسمه على معابد أخرى .

٦ ـ الملك تاتون امون : (٦٦٤ ـ ٦٦٣ ق٠م) : وبعد حكم طهرقا خمسا وعشرين سنة أشرك معه فى الحكم ابن شبتاكا المدعو تاتون امون .. بدواع اجبارية على الأرجح ، وعينه حاكما على صعيد مصر ، وذلك عام ٦٦٣ ق٠م والظاهر أن تاتون امون استمر فى طيبة وقتا ماكان منت محت أمير طيبة محافظا على سلطته هناك .

أما طهرقا فرجع الى نبتة ، متعبا من كفاحه مع اشور ، واستقر هناك حتى توفى ، وذلك قبل أن تنقضى سنة تقريبا على توليه تاتون امون «أى عام ٦٦٣ ق م » عند ذلك أسرع تاتون امون الى نبتة ، وتسلم عرش النوبة وقبل ذلك بقليل رأى تاتون امون فيما يرى النائم حلما ، فسر بأنه سيستولى يوما على وجهى مصر . فبدأ حال توليته الملك بتحقيق المنام وذلك سنة ٦٦٣ ق . م ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التى مثلها طهرقا فلما بلغ الوجه القبلى حيته الأهالى بالمديح والتصفيق . ولكنه لما بلغ منف ، قابلته قوات آشور، ومدن أمراء الدلتا الوجلين من آشور، فتغلب عليهم، واستولى على منف ، والظاهر أن نخاوخر صريعا فى هذه المعركة . وقال هيردوت: ان ابنه المدعو بسماتيك فر الى سوريا . ففرح تاتون آمون بنصره كثيرا ، وأرسل بعض غنائمه الى نبته ليشيد بها معابد جديدة . أما ولاة الوجه البحرى فانهم لم يسلموا بلادهم لتاتون آمون « لخوفهم من آشور « فلم

يتمكن تاتون امون من الالتقاء بجيوشهم او القبض على بلادهم ، فرجع الى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحرى ، الذين أظهروا له الود ، والخضوع بشكل لايفهم منه أنهم قطعوا صلتهم مع آشور •

واقتصر تاتون فى سيادته على الوجه البحرى ، فاتخذ منف مقرا له ، محققا منامه • ولكن ولاة آشور بالوجه البحرى كانوا قد طيروا خبرا على جناح السرعة الى آشور بانيبال بنينوى ، حالما غادر تاتون آمون نبتة ، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ ق•م الى مصر وطرد الأثيوبيين من الوجه البحرى نهائيا ففر تاتون آمون الى الصعيد لكن الاشوريين تعقبوه حتى طيبة وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها ثمينا الا سلبوه فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغالية التى أهداها الأمير منت محت الى المعابد • وأخذ الاشوريون خلاف ذلك مسلتين فضيتين زاهيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كانتا منصوبتين على مدبل أحد المعابد ، وقد نقلوهما • الى نينوى • ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبة المهمة ، كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى ذلك العهد ، وانتشر نبأ خراب طيبة فى الآفاق ومنذ ذلك الوقت اخذت طيبة تضمحل وتندثر ، بعدما كانت مضرب الأمثال فى الغنى والجاه ، ولاتزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة •

وكان رجوع تاتون آمون الى نبتة نهاية الحكم الأثيوبى بمصر بعد ان دام هذا الحكم حوالى ثمانين سنة •

والعصر الأول لملكة كوش بعد انفصالها عن مصر يمتد من سنة ٦٥٣ —

٥٣٨ ق.م ويشمل حكم ستة ملوك من احفاد الملك طهرقا .ويتضح ذلك من الدول الآتى (١) :

طهرقا
أفلانرسا
ناسالسا = منكا مانسكن
أن لامانى ٥٣٨_٥٣٣ ق.م = ماديكن
أسبالتا = هانوت أكبيت
أمانيتا كاى ٥٣٣_٥١٣ = أمتالفا
مالبناقن

ويبدو أن هؤلاء الملوك كانوا أغنياء وأقوياء رغم انفصالهم عن مصر كما يبدو أنهم احتفظوا بالثقافة المصرية التي ورثوها .فمثلا نجد أن حجرات

(١) أركل ١٤١ .

الدفن فى أهرامات انلامانى وأسبلقا ، اكتشفت فيها توابيت يزن الواحد منها ١٥ طنا ، والغطاء وحده أربعة أطنان ، وكان يزينه بالنصوص التقليدية ، التى كانت مستعملة بمصر منذ عهد الدولة الحديثة ، كما تحوى مقتطفات من نصوص الأهرام وكتاب الموتى •

وكشفت عمليات الحفر والتنقيب فى بلدة « كوة » المقابلة لدنقلة عن بعض كتابات على جدران معبد يرجع بناؤه الى الملك طهرقا •
وتشير هذه الكتابة الى ان الملك قد زار (كوة)وأنشأ وظيفة كهنوتية، وحضر عيدا استمر سبعة أيام ، كما تدل النقوش على ان طهرقاوجه حملة ضد بلاد (ملك ، ،) التى تبدو أنها احد فروع البجة الذين كانوا يهددون « كوة » والبلاد الاخرى (١)
وعلى الرغم من عدم وجود نقوش تاريخية معروفة لناعن تلك الحقبة، الا ان هنالك بعض النقوش توضح لنا بجلاء أن تلك الحقبة كانت ذات نشاط ملحوظ فى فن البناء •

فالملك أتلانرسا ، وهو أول ملوك هذا العهد ، بدأ فى بناء معبد بجبل برقل ، تم بناؤه بواسطة خليفته الملك سنكا مانسكن •وان تماثيل الملوك الخمسة من أتلانرسا الى أمتالقا ، قد وجدت فى جبل برقل ، وأن الملكين أن لامانى وأسبلتا تركا اسميهما هنالك على البناء ، الذى حسبه رزنر أنه صالة التتويج ، وان هنالك قطعا من الجرانيت مبعثرة على أسبلتا وجدت فى معبد الشمس فى « مروى » •
لكن انفصام عرى الصلات بين مصر وبلاد النوبة ، كان له أثر سيء على مملكة نبتة ، فلم يفكر ملوك كوش فى اعادة فتح مصر ، بل صرفوا هممهم

الى ترقية بلادهم . وبالتدريج أخذ عدد المصريين فى النوبة يقل، وأخذت الصبغة المصرية التى كانت قد انصبغت بها البلاد تتلاشى شيئا فشيئا . وتنيجة لذلك سارت حضارة بلاد النوبة فى طريق التدهور ، وأصبحت الثقافة النبتية محاكاة للثقافة المصرية القديمة ينقصها الابتكار والروح.

وفى نفس الوقت أخذت اللغة المصرية ، التى انتعشت كثيرا فى عهد فراعنة نبتة ، أخذت تتلاشى ، وأصبح استعمالها قاصرا على المكاتبات فى الدواوين ، وأصبح العامة لا يعرفون عنها شيئا . ومن سوء الحظ أن لغة التخاطب التى حلت مكانها لا نعرف عنها شيئا الآن . على أن سلطان الدين أخذ يقوى على ماهو مألوف فى مثل حالات الضعف هذه ، وعظم شأن الكهنة حتى أصبحت سلطة الملك اسمية وأصبحت السلطة الفعلية فى يد الكهنة ، وكذلك كان لانقطاع الصلة بين النوبة ومصر أثر آخر سىء على اقتصاديات البلد . فقوة مملكة نبتة وثراؤها ، كانا يعتمدان كثيرا على التجارة بين مصر والنوبة فى الدقيق والعاج والذهب . وكانت نبتة ملتقى الطرق التجارية ، فلما انقطعت التجارة فقدت نبتة مركزها الاقتصادى .

الفصل السادس

مملكة مروى

وتشمل تاريخ أثيوبيا منذ بدء حكم الأسرة ٢٦ المصرية من سنة ٦٤٤ ق٠م الى دخول المسيحية لبلاد النوبة سنة ٥٤٠ ميلادية •

ا ـ طرد الأشوريين من مصر : خلف بسماتيك والده نخاو فى الامارة على صا الحجر ، وأول ما عمله بسماتيك « أن التفت الى الامراء ، فقضى على ما كانوا يتمتعون به من سلطان فخضع له الجميع ، وبذلك عادت الى مصر وحدتها سنة ٦٥٤ ق٠م •

ولم يكد بسماتيك يحقق غرضه الأول وهو وحدة البلاد ، حتى شرع فى تحقيق غرضه الأسمى ، وهو تخليصها من نير الأجانب • فانتهز فرصة انشغال الأشوريين بالفتن فى بلادهم ، وطرد ما بقى من حامياتهم وموظفيهم فى مصر ، فاستردت بذلك استقلالها •

وبهذين العاملين الجليلين ، استطاع بسماتيك ، أن يحتل بين الفراعنة الأوائل ، مكانا ساميا • ويعده المؤرخون مؤسس الأسرة ٢٦ ، ويعرف باسم العصر الصاوى فى تاريخ مصر حيث ازدهرت فيه البلاد من جميع النواحى •

فعمل بسماتيك على تشجيع التجارة الخارجية ، فأعاد العلاقات التجارية القديمة بين مصر وسوريا ، وشجع الفينيقيين والاغريق على الاستيطان بمصر ،

بما كان يمنحهم من تسهيلات ومزايا ، وذلك كى تستفيد البلاد من نشاطهم وخبرتهم .

ولما مات بسماتيك بعد أن جلس على عرش مصر خمسين سنة ، خلفه ابنه نخاو الثانى عام٦٠٩ ق ٠م ، وفى عهده تم فتح فلسطين وسوريا ، ولكن ما لبث ملك بابل أن هزم المصريين وانتزع منهم تلك البلاد سنة ٦٠٥ ق٠م٠ وانصرف نخاو الى الاهتمام بالتجارة . وفى عهد خلفه أحمس الثانى ازداد عدد الاغريق فى مصر فأمرهم بالتجمع بمدينة (نقراطيس) الواقعة غرب فرع رشيد ، وحظر عليهم الاقامة فى غيرها من المدن ، وأصبحت هذه المدينة بعد فترة وجيزة اغريقية صرفة .

وفى أواخر عهد أحمس هذا ، تعرضت مصر لخطر عظيم ، وذلك بنهوض دولة الفرس وامتلاكها غرب آسيا .

الفرس وفتح مصر :

وأما خطر الفرس الذى ظهر فى غرب آسيا ، تحالف أحمس الثانى ملك مصر مع أمراء آسيا الصغرى وبابل وغيرهم ، وحتى الاغريق الذين كان البحر يفصل بين بلادهم وبين آسيا ، اشتركوا فى التحالف ضده ، ولكن ملك الفرس ، كان أسرع منهم تدبيرا . فانقض على آسيا الصغرى وأخضعها ، ثم فتح سوريا وفلسطين .

ولما توفى كانت جيوشه على أبواب مصر ، وخلفه ابنه (قمبيز) الذى نفذ مشروع فتحها .

وبينما كان أحمس الثانى يتأهب للدفاع عن بلادهم ، أدركه الموت فخلفه ابنه بسماتيك الثالث ،وفى عهده هجم (قمبيز) ملك الفرس على مصر

سنة ٥٢٥ ق٠م ، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن من الاستيلاء على منف والقبض على بسماتيك وقتله ٠ فانتهت بذلك الأسرة ٢٦ ٠ وبعد ان استقر الأمر لقمبيز في مصر ، أرسل حملة لواحة سيوة ، المعروفة وقتئذ بواحة امون، ولكن عواصف الصحراء الرملية عصفت بالحملة ، وقضت عليها

ثم جهز قمبيز حملة ثانية ، وقادها بنفسه الى النوبة ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتها ٠ وقد أثر هذا الفشل فى قمبيز فاساء معاملة المصريين فسخطوا عليه وكرهوه ٠

ولما توفى قمبيز خلفه « دارا الأول » الذى زار مصر وحاول التقرب من المصريين ، باحترام معبوداتهم والاستكثار من الأعمال النافعة فيها٠

نهاية الحكم الفارسى فى مصر : وتعد هذه الفترة التى كانت مصر فيها تحت الحكم الفارسي : عهد الأسرة ٢٧ ، التى استمرت حتى سنة ٤٠٥ ق٠م حيث قام أحد أمراء الدلتاء وأعلن استقلاله بالبلاد ، وكون الأسرة ٢٨ وتبعتها الاسرتان ٢٩ ، ٣٠ ٠ وقد حاول الفرس مرات عدة، أن يعودوا لفتح مصر ، ولكن بدون جدوى ، حتى سنة ٣٤٢ ق٠م استطاعوا دخولها مرة ثانية وحكموها لمدة عشرة أعوام ، لقيت فيها البلاد الكثير من أنواع الظلم والعذاب ، الى ان خلصها منهم الأسكندر الأكبر ٠

٣ ـ قيام مروى : بعد ان انفصلت كوش عن مصر كان على ملوكها أن يواجهوا صعابا كثيرة لكى تبقى دولتهم مزدهرة ، ذلك لأن نبتة كانت كما رأينا تعيش على التجارة التى تنقلها من الجنوب وتستبدل بها بضائع مصر كما أنها ، كانت فقيرة من النواحى الزراعية نظرا لفقر المنطقة التى كانت بها ، وحتى الصناعات التى كانت تقوم بها كانت ضعيفة ، ومعظمها آت من مصر فعندما انفصلت كوش كان عليها ان تبحث عن وسيلة أخرى تنمى بها مركزها الاقتصادى أى تنمى بها صناعتها وتجارتها ، وكان من المستحيل

ان تتقدم هذه النواحى فيما بين الشلالين الأول والرابع • لذا نجدهم يجدون بالبحث عن مكان آخر يعتمدون عليه ويكون سهل الاتصال بنبتة• فاتجهت أنظار ملوك كوش نحو الجنوب ، فوجدوا فى شرق النيل — بين الشلال الخامس والسادس ، وعلى بعد أربعة أميال شمال محطة سكة حديد بلدة كبوشية — منطقة زراعية غنية ، هى التى تسمى أرض البطانة، فى امكانها أن تقدم لهم محصولات زراعية واسعة (شكل ١١)

ونظرا لأنها منطقة رعوية أيضا فهى توفر لهم عددا ضخما من الحيوان، لذا نشأت فى هذه المنطقة مدن صغيرة ، وأخذت تتوسع بسرعة ، وخاصة مدينة البجراوية ، التى تقع على نهاية وادى الهواد • وبقرب هذه المدينة وجد الحديد بكثرة ، فازدهرت بذلك الصناعة، خاصة لوجود الوقود من الأخشاب التى تكثر بالبطانة • وساعد وجود الحديد على ازدياد أهمية هذه المنطقة ، خاصة وأن طرق المواصلات بها كانت متوفرة ، فهى تتصل بنبتة عبر صحراء البيوضة ، كما تتصل بجهات شرق السودان ، بالاضافة الى الطريق الذى يصلها بمصر عبر صحراء العطمور كما أنهم توسعوا أيضا الى الجنوب فى اتجاه محاذ للنيل حتى وصلوا الى الجزيرة بدليل وجود بعض آثار فى أقصى جنوب الجزيرة • يتبين لنا من هذا كله أن مروى كانت منطقة غنية جدا ، لذا اهتم بها ملوك نبتة اهتماما بالغا ، فنمت وتوسعت فى نفس الوقت الذى كانت فيه نبتة نفسها تنهار وتتأخر • وأصبحت مجموعة مدن مروى والبجراوية وكبوشية (شكل ١١) هى المركز الغنى للملكة ، مما جعل ملوك نبتة يجعلون عليها حاكما خاصا من أفراد الأسرة المالكة • وخلال فترة طويلة ظلت نبتة هى العاصمة السياسية للدولة « ولكننا نجد بعد فترة أن العاصمة قد انتقلت الى مروى • ويظن أن هذا حدث فى عهد الملك أن لاماى (٥٣٨ — ٥٣٣ ق•م) ، كما يظن أن أسباب هذا الانتقال ترجع الى قوة حكام مروى ، والى أن مروى

كانت أقرب الى السودان الاوسط ، حيث الأمطار الصيفية المنتظمة ، وهى التى مكنت تلك المحاصيل الهائلة من النمو •

والسبب الرئيسى للتفكير فى نقل العاصمة من نبتة الى مروى قد حدث فى القرن السادس وليس فى القرن ١٤ ق•م ،وكان هذا مباشرة بعد عهد الملك ماليناقن « ٥٥٣ — ٥٣٨ ق •م » ويقول الأثرى جارستانج : لاشك أن ضواحى مروى قد امتدت حتى الكابوشية لما وجدناه من مواقع بعض المعابد وأطلال من جدران القصور ، التى يمكن أن يرجع تاريخها الى عهد الملك طهرقا وفى الشرق مباشرة من تلك الأطلال ، يمتد أيضا نحو الشرق مساحة قدرها ١٢٠ مترا خرائب من الأحجار الرملية ، هى أطلال معبد آمون • الذى يظن أنه بنى فى عهد الملك أسبلتا « ٥٩٣ — ٥٦٨ ق•م » ، وتدل هذه الاطلال على انها كانت مبنية على نظام مصرى صميم ، كان هو الحال فى المعبد العظيم الموجود فى نبتة ، والذى يقع تحت جبل برقل •

وعلى كلا الجانبين شمالا وجنوبا من موقع المعبد ، تمتد مسافة نصف ميل تقريبا أطلال تلك المدينة القديمة ، كما أنها تمتد كذلك نحو الشرق حتى تصل الى خط السكة الحديد ، وتقع فيها كذلك بعض المبانى السودانية•

وتلكم هى الصورة الوحيدة ، التى يمكن أن نستدل منها على تلك العاصمة الشهيرة ، لذلك المكان ، وما هى الا صف من المبانى المقدمة بالآجر ، ومعظمها يقع نحو الغرب ، حيث كانت المدينة •

وأما فى الشرق من خط السكة الحديد فتوجد أطلال معبدين صغيرين ، أو ثلاثة • ويحتمل ان يرجع تاريخ أحدهما الى ما قبل سقوط مروى بقرون عديدة • ويبدو أن هذا المعبد كان مسقوفا بقضبان حديدية ، ولو صح هذا فما لاشك فيه أن هذا يعتبر دليلا واضحا على قيام الصناعة الحديدية فى السودان فى مثل هذا الوقت المبكر •

حقا ان هناك قليلا من الشك فى انه عن طريق مروى انتشرت معرفة صناعة الحديد شرقا وغربا فى ربوع افريقية الزنجية • وفى هذا الوادى حيث توجد مروى أقيمت المصطبة التى أقيم عليها معبد الشمس الشهير ، الذى وصفه هيردوت المؤرخ الاغريقى المشهور بقوله : « ان مصطبة الشمس تشبه مرعى خارج المدينة » وهذا وصف دقيق للموقع الذى بنى عليه معبد الشمس ، وفى هذا الموقع الى أيامنا هذه تنمو الحشاش والأعشاب ، أكثر من الوادى المحيط به •

ووراء هذا المعبد توجد مقبرة الطلال ، التى يوجد بها الأهرامات الكثيبة ، لتى دفن فيها أعيان مروى طيلة حياتها •

وان ما عندنا من المعلومات التاريخية عن هذه الفترة لقليل وان أسماء الملوك وتتابعهم معروف الينا من حفريات رزنر ، الذى قام بحفريات اهراماتهم فى نورى •

واليك ثبت بهذه الأسماء ومدة حكم كل منهم (١) •

١ — أنا لماى ٥٣٨ — ٥٣٣ ق•م•

٢ — أمانى ناتاك لبت ٥٣٣ — ٥١٣ ق•م•

٣ — كركمانى ٥١٣ — ٥٠٣ ق•م•

٤ — أمانى أستاباكا ٥٠٣ — ٤٧٨ ق•م•

٥ — سى أسبيكا ٤٧٨ — ٤٥٨ ق•م•

٦ — ناسا خاما ٤٥٨ — ٤٥٣ ق•م•

٧ — مالى ويبا مانى ٤٥٣ — ٤٢٣ ق•م•

٨ — تالاخا مانى ٤٢٣ — ٤١٨ ق•م•

---

(١) أركل ١٥١ ١٥٣ •

٩ ــ أمان نيت يريك ٤١٨ ــ ٣٩٨ ق.م.
١٠ ــ بسكا كرون ٣٩٨ ــ ٣٦٢ ق.م.
١١ ــ ملك مجهول دفن فى هرم الكورو ٦٦٢ ــ ٣٤٢ ق.م.
١٢ ــ أخراتان ٣٤٢ ــ ٣٢٨ ق.م.
١٣ ــ ناستاسن ٣٢٨ ــ ٣٠٨ ق.م.

ومن القائمة الآتية يمكن معرفة العلاقة بين الملوك من ناساخا ما الى ناستاسن .

ناسا خاما
؟
مالى ويبا مانى — تالا خامانا
أمان نيت يريك = أتاسا مال ؟ — بسكا كرن
؟
باتا مالى = هارسيوتف = ؟ — بلخا بن أتاسا مال
أخراتان — ناستاسن = ساخ ماخ بن بلخا

حالة السودان فى العهد المروى

ومن البضائع التى تخلفت من اللصوص فى القبور الملكية ، يمكنا أن نتتبع التدهور التدريجى الذى حدث فى هذا الوقت فى الثقافة التى ورثت من مصر فقد كان هنالك انحطاط ملحوظ فى الثقافة المصرية الهيروغليفية فى

عهد الملك مالى ويبا مانى (٤٥٣ — ٤٢٣ ق٠م) ٠ فيلاحظ طوال عهده أن صناعة الفخار قد انحطت ، وصناعة الصباغة كانت غير مهذبة ، ولم تكن هناك أى أدوات تدل على الفخامة والرشاقة ، والأوانى الحجرية لم تعد تصنع محليا ، ماعدا بعض أوان مصنوعة من الألباستر ، المستورد من مصر ، وتدهورت كذلك المعابد الصغيرة الملحقة بالأهرام وبعد قليل أصبحت اللغة المصرية غير معروفة تماما كما ذكرنا ٠ وثلاثة من خمسة أسماء ملكية قد ثبتت ونقلت من ملك الى ملك كما أنها جزء من الألقاب الملكية ٠

وكل ما امكن ان نستقيه من معلومات عن هذه الفترة كان عن طريق ثلاثة نقوش ٠ كان أقدمها النقوش العظيمة التى ترجع الى عهد الملك أمان نيت يربك (٤١٨ — ٣٩٨ ق٠م) وكانت منقوشة على جدران معبد طهرقا فى « كوة » وقد كانت منقوشة باللغة الهيروغليفية المصرية ٠ ومن الواضح أنه بالرغم من ان اللغة المصرية كانت اللغة الرسمية فى الكتابة ، لكنها لم تكن لغة الحديث والكلام ٠

وفى هذا النقش نعت الملك « بابن آمون » ، كما وصفت نبتة بأنها التل المقدس لأرض ، النحسى ، وعدد النقش الحملات التأديبية التى أرسلها الملك ضد القبائل المغيرة وخاصة قبائل البجة ٠

والنقش الثانى كان خاصا بالملك هارسيوتف (٣٩٧ — ٣٦٢ ق٠م) ، وكان مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من عهده ٠ وقد وجد بجبل برقل وهو الآن بمتحف القاهرة ٠ وعليه ذكر هذا الملك تسع غزوات ، وذكر أسماء أماكن مختلفة ٠ وكانت الحملات الثلاث الأولى منها ضد قبائل « الرهرة » الذين كانوا قد غزوا جزيرة مروى فى عهدين سابقين ، وحملة أخرى ضد ثوار « أكنا » ٠

وبالجملة كانت كلها حملات تأديبية ضد القبائل المعادية ٠ ومن ضمن هذا

النقش ذكر الملك أنه حلم بأن الاله آمون قد منحه العرش ، لذلك قام برحلة الى نبتة حيث منحه آمون العرش فعلا . وذكر فى النقش أيضا نشاطه فى فن البناء فى نبتة وغيرها » وكذلك الاحتفالات التى أقامتها فى اثنتى عشرة مدينة .

والنقش الثالث وينسب الى الملك نستاسن (٣٢٨ — ٣٠٨ ق.م)، وهو آخر الملوك الذين دفنوا فى نورى ، وقد اعتــلى العرش تقريبا فى الوقت الذى ضم فيه الاسكندر الأكبر مصر الى امبراطوريته .

وقد عثر على هذا النقش الأثرى لبسس فى جبل برقل وأهداه الى متحف برلين ،وقد ذكر فيه أن استدعى من مروى الى نبتة ، حيث منحه الالهة آمون الملك على (t'Li) التى يحتمل أن تكون (ألوا) البلاد التى تحيط بمدينة الخرطوم ، والتى كانت عاصمتها « سوبا » على بعد ١٢ ميلا من النيل الأزرق .

وكانت محاولات لعمل حفريات (سوبا) ، ويدلنا على ذلك وجود تمثال لخروف فى كنيسة الخرطوم منقوش عليه باللغة المروية الهيروغليفية، وقد أحضر هذا التمثال غوردون من سوبا الى الخرطوم . وتدل النقوش التى عليه أن « سوبا » مدينة عامرة .

وكما فعل الملك هارسيوتف ، فان الملك نستاسن قد قام بزيارة عدة معابد كما قام باتفاذ عدة حملات تأديبية ، يستدل منها على أن حالة الأمن والاستقرار قد أخذت فى التدهور .

ولما كشف رزنر المقبرة الشمالية فى مروى ، أبان لنا من حفرياته فى هذه المقبرة مجموعة الملوك الآتية أسماؤهم .

١ — أماتنخا ٢٥٥ — ٢٤٢ ق.م .

٢ — هنيكا ٢٤٢ — ٢٢٥ ق.م .

٣ ــ أركمانى ٢٢٥ ــ ٢٠٠ ق٠م٠
٤ ــ أديخالا مانى ٢٠٠ ــ ١٨٠ ق٠م٠
٥ ــ ناكى رينسان ١٨٠ ــ ١٦٠ ق٠م٠
٦ ــ الملكة نهـركا ١٦٠ ــ ١٥٠ ق٠م٠
٧ ــ شنالك داخيتى ١٥٠ ــ ١٢٥ ق٠م٠
٨ ــ أهرام (رقم ١٣) ١٢٥ ــ ١٠٠ ق٠م٠
٩ ــ تنيدامانى (أهرام رقم ٢٠ ١٠٠ ــ ٨٠ ق٠م٠
١٠ ــ تريتيكاس « ؟ أهرام رقم ٢١ » ٨٠ ــ ٦٠ ق٠م٠
١١ ــ الملكة أمانى ريناس ٦٠ ــ ٤٥ ق٠م٠
١٢ ــ أكينى داد « لو كان قد اعتلى العرش فعلا »
١٣ ــ الملكة أمانى شاخينى « أهرام رقم ٦ » ٤٥ ــ ٢٥ ق٠م٠
١٤ ــ الملكة نلدمالك (أهرام برقل السادس)
١٥ ــ أمانى خبالى ؟ (أهرام رقم ٢)
١٦ ــ نتاكا مانى (أهرام رقم ٢٢) ١٥ قم ــ ١٥ قم ــ ١٥ م
١٧ ــ أمانا تيرى (أهرام رقم ١ (١٥ م ــ ١٥ م ٠

وان تتابع هؤلاء الحكام السبعة والعشرون الذين أتوا بعدهم فى المقبرة الشـمالية قد كشـف النقاب عنه بواسـطة مقارنة الأهرامات ومحتوياتها مقارنة مفصلة ٠

واذا حكمنا على هذه الأهرامات من حيث حجمها وخاصة بنائها ، وجدنا أن حكم ارجامينس وخلفائه الخمسة كان أكثر العهود ازدهارا ٠ فالنقوش التى وجدت فى معابد فيلة ودكة والنوبة السفلى ، ترينا أن جامينس كان معاصرا لبطليموس الرابع فى مصر ٠ ففى معبد فيلة نجد أن أقدم أبهائه الداخلية كانت من عمل بطليموس الرابع ، وان بهو المدخل كان من عمل

ارجامينس • وهذا الجزء الذى قام به ارجامينس مشوه فى أحد أجزائه وقد أتمه بعد ان كبره فى أحد جوانبه بطليموس الخامس •

بينما فى « دكة » فى الجهة المضادة لمدخل وادى العلاقى ، قد أقيم مثل هذا البناء ،ولكن فى نظام مغاير • فالمدخل الداخلى قد بناه ارجامينس، والبهو الخارجى قد بناه بطليموس الرابع والمظلة التى فى المدخل قدبناها بطليموس التاسع • وكلا المعبدين قد أضاف اليهما الامبراطور أغسطس شيئا من المبانى •

ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الاتصال بين مصر وكوش عن طريق النوبة السفلى ، كان أخويا فى عهد بطليموس الرابع ، وأما فى عهد خلفه بطليموس الخامس ، فقد دل تشويه أختام ارجامينس فى فيلة ، على تأخر وقتى فى العلاقات بين البلدين • ومن المحتمل أن يكون تأخر العلاقات هذا من أسباب قيام الثورة الخطيرة التى حدثت فى مصر العليا فى أواخر حكم بطليموس الرابع •

والحقيقة القائلة بأن بعض الاغريق من سيرين قد نقشوا أسماءهم — فى حوالى ذلك الوقت — على عمود فى معبد بوهين ، تبين احتمال وجود احتلال مؤقت للمنطقة كلها بواسطة قوات بطلمية • ولكن نقوشا تنسب الى بطليموس السابع وأديخالا مانى (٢٠٠ — ١٨٠ ق•م) وبطليموس الثامن فى معبد عند (Ebod) ، بين فيلة وكلابشة ، تشير الى استئناف العلاقات الودية فى الطرف الشمالى للنوبة السفلى • واستمرت هذه العلاقات الودية بين مصر ومروى وربما مع غيرها مع جهات العالم الأخرى، وذلك طوال عهد الملك ارجامينس وخلفه المباشر • ولعل الثقافة المصرية، أخذت فى هذا الوقت تنتعش نوعا ، ذلك لأن ارجامينس استعان بأحد

الفنانين المصريين فى عمل التحلية الخاصة بهرمة (١) ، ومن المحتمل أن يكون هذا آخر عهد استعمال اللغة المصرية القديمة فى كوش • وبالتالى أول عهد اختراع النقوش المروية المحضة •

وكانت محاول تحلية هـرم الملكة تاهـيركا (١٦٠ ـ ١٥٠ ق ٠م) بالكتابة الهيروغليفية فاشلة ، وذلك لأن النقوش المروية أصبحت هى المعروفة بعد أن فقد الفنانون معرفتهم للهيروغليفية •

والهرم الذى دفن فيه الملوك الستة خلفاء ارجا مينس ، يبين انحطاطا ظاهرا فى الحجم وفى شكل حجرة الدفن (٢) •

وبالجملة يمكن ان نقول : ان البطالسة قد مدوا حدود مصر جنوبا حتى المحرقة على نحو ٨٠ ميلا جنوب الشلال الأول وتركوا من الآثار هياكل المحرقة والكلابشة والدكة فى النوبة السفلى ، وهيكل جزيرة فيلة الجميلة المعروفة بقصر أنس الوجود •

أما الرومان فبعد أن احتلوا مصر حتى أسـوان عملوا على تأمـين حدودهم الجنوبية ، بأن دخلوا فى اتفاق مع رؤساء النوبة على أن يكف أهل النوبة عن غاراتهم على حدود مصر ، وأن يترك الرومان أهل النوبة وشأنهم يحكمون بلادهم•

ولما لم يحافظ أهل النوبة على عهدهم وهاجموا حدود مصر الجنوبية ودخلوا أسوان يسلبون وينهبون ، وانتزعوا تمثال الامبراطور أغسطس قيصر من وسط المدينة حملوه الى بلادهم ، لما فعل المرويون هذا هاجمهم وطالت الحرب بين الطرفين •

---

(١) رزنر ١٩٢٣ / ٤٢ ـ ٤٣ •
(٢) المصدر نفسه ١٩٢٣/٦٩ •

وكان أهم هذه الحروب تلك التى دارت بين الكنداكة ملكة مروى وبين بترونيوس حاكم مصر من قبل أغسطس قيصر .

وقد تمكن هذا الحاكم من دحر الكنداكة ومتابعة جيوشها حتى مدينة نبتة حيث دمرها تدميرا . ولكنه لم يقم بأكثر من هذا اذ اكتفى بحملته الانتقامية ، ورجع الى مصر دون أن يحتل النوبة . وعلى الرغم من اكتفائه بهذا القدر فقد أصبحت حكومة الامبراطورية الرومانية تفهم ، أن السودان جزء من امبراطوريتها ، للحكومة عليه من الحقوق ما لأجزاء الامبراطورية الاخرى ، وقد ساق هذا الفهم الى استفادة السودان من مشاريع حكومة القسطنطينية ، الارسالية الخاصة بالتبشير للديانة المسيحية على ما سنذكره بعد ، وفوق ذلك تسربت الفنون الرومانية المعمارية الى مملكة مروى كما تشهد بذلك آثار النقعة وغيرها .

فوجدت بعض هذه الآثار فى هرم نتاكامانى (١٥ق.م — ١٥ م) وزوجته أما تيرى (١٥ م — ١٥ م) ومعبد الأسد فى النقعة والكشك الواقع بالقرب منها وتقع هذه فى أرض البطانة على بعد ٣٥ ميلا من شندى . وقد روى كتاب اليونان والرومان أخبار اتصال مملكة مروى ببلادهم . وبالرغم ان هؤلاء قد بنوا كتاباتهم على النقل ، الا أننا نجد بعض المعلومات المفيدة ، والتى تؤيدها الآثار فى كتاباتهم .

ونسوق هنا طرفا من كتاباتهم عسى أن يلقى ضوءا على حوادث عهد مروى ، لما أن فشلنا فى الوصول الى ما نريد من معلومات من الآثار . وسنجد أن كتابات استربو اليونانى أقيم بكثير من أخبار ديدورس الاغريقى وبلاينى الرومانى ، على أن ديدروس كان يعرف الكثير عن النوبة (١) .

---

(١) مذكرات مندور المهدى ص ٣٥ .

ديودورس Diodrus

يستفاد من كتاباته أنه كان يسمى أهل بلاد السودان الأثيوبيين ويذكر عنهم أنهم أول الخلق على ظهر الأرض ، وانهم اول من عبد الآلهة وقدم لها القرابين ، وان قوانينهم وكتاباتهم مصرية ، ثم استرسل بعد ذلك فى وصف السكان وطرق معيشتهم ، وخلط كثيرا فيما قال ، ولا داعى لذكر وصفه لأنه بعيد كل البعد عن الحقيقة .

أما استرابو Strabo

فيقول : ان الجزء الاكبر من السودان غير صالح للسكنى ،ولايصلح للحياة فيه الا الاراضى التى يغمرها فيضان النيل ، ثم يستطرد فيقول : وهناك نهران يصبان فى النيل ، وينبعان من بحيرات فى الشرق .أما النيل الرئيسى فينبع من الجنوب ويمتلىء النيل عندما يفيض النهر فى أشهر الصيف وفوق ملتقى هذين النهرين تقوم مدينة مروى ،وذكر أن الأهالى يجلون ملوكهم ، ويضعونهم موضع الآلهة ، ويظل ملوكهم فى أغلب الأوقات محتجبين فى قصورهم . واستطرد يقول : وتوجد مناجم للنحاس والذهب والأحجار الثمينة .

أما بلينى Pliny

فقد كتب بعد ديودورس واسترابو ، ويظهر أنه كان أقل منهما الماما بأحوال البلاد ، فيحدثنا عن أناس غريبين بلا أنوف وآخرين بلا شفاه أو بلا ألسنة ، ويقول ان نبتة على مسيرة ثلاثة أيام من البحر الأحمر ، وان أثيوبيا مليئة بالذهب .

من ذلك كله ، نرى أن الكتاب اليونان والرومان لم يتمكنوا من أن

يعطونها فكرة صحيحة واضحة عن بلاد السودان فى تلك الفترة ، وان كنا قد استنتجنا من كتاباتهم بعض المعلومات النافعة ، فعرفنا أن تلك البلاد كانت غنية بالمعادن ، وأنها كانت متأثرة بحضارة قدماء المصريين .

تدهور دولة مروى (١) :

ظلت دولة مروى قائمة مدة طويلة من الزمن ، ولكن عوامل هامة تعمل للقضاء عليها منذ البداية . ولعل انتقال عاصـــمة اثيوبيا جنوبا ، وبعدها عن مصر ، جعل اتصال العالم الشمالى بها عسيرا ، الامر الذى جعل مدينة اثيوبيا تنحصر فى نطاق محلى ضيق ، وتعيش على ما تنتجه محليا ، كما ان هذا البعد من مصر جعل الاتصال بين اثيوبيا وبين الدول التى حكمت مصر خفيفا بسيطا .

فالفرس قد فشلوا فى دخول السودان ، وكذلك كان نصيب الرومان والبطالسة لم يتمكنوا من مد حدودهم جنوب المحرقة .

واتصالات هؤلاء وأولئك بأثيوبيا لم تكن من النوع الذى يترك أثرا بالغا ، وان لم يخل من أثر . فقد نتج من اتصال الرومان بمروى نشاط فى العمارة ملحوظ كما سبق أن عرفنا ذلك .

هكذا لم تجد دولة مروى ما يبعث فيها الحيوية والابتكار من عوامل خارجية أو داخلية ، فأخذت تأكل نفسها . الأمر الذى أدى الى تدهورها ، ودخولها بالتدريج فى عالم الوهم والخيال بالنسبة للعالم المتمدن ، خاصة فى عهدها الأخير . وأخذت دولة مروى تنحط هكذا بين القرنين الأول والرابع وتوالت هجمات السود من الجنوب الغربى «النوبة» ، والبجة من الشرق ،

(١) مندور المهدى : مذكرات ٢٨ .

على دولة مروى ، فاختلت اقتصادياتها وساء موقفها السياسى . فانقسمت دولة مروى الى قسمين : قسم فى الشمال يحكم من نبتة ، والقسم الجنوبى يحكم من مروى . وعلى هذا القسم الثانى أتت مملكة أكسوم الحبشية « التى قامت فى شمال الحبشة على بضعة أميال من « عدوة » حوالى سنة ٣٠٠م ، على يد الملك الأثيوبى المسيحى ، الذى قام بحملة على جزيرة مروى ، شمال أرض البطانة » ، وحطم مدينة مروى ، وأحرق مخازن الذرة والقطن فيها . كما خرب مدينة علوة بالقرب من الخرطوم ، وعاد أدراجه مكتفيا بضم بعض الأجزاء الشرقية من مملكة مروى الى ملكه .

الفصل التاسع

السودان والمسيحية

١ — ظهور المسيحية : لما ظهر المسيح عليه السلام فى فلسطين ، وجعل يجوب البلاد ويدعو الى الاخاء والمساواة بين الناس ، ويحض على طاعة الله والابتعاد عن الخطايا ، حقد عليه كبار اليهود ، وخشوا نتيجة دعوته، واستعانوا عليه بالحكومة الرومانية ، التى كانت تسيطر على فلسطين فى ذلك الحين ، فكان موضع اضطهادها وتعذيبها ، ولكن المسيحية مع ذلك انتشرت فى آسيا الصغرى واليونان ومصر ، بل وفى روما نفسها وسارع الناس الى اعتناق الدين الجديد ، ونبذوا عبادة الأوثان لأن عقولهم نضجت فأدركوا أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

٢ — أضطهاد المسيحية : ولكن الحكومة الرومانية عملت على محاربة المسيحية ، اذ رأت فى انتشارها ما يهدد وحدة الامبراطورية ، لأن المسيحيين رفضوا عبادة الأباطرة ، المنصوبة فى المعابد ، وعملوا بكل الوسائل على نشر دينهم فى أنحاء البلاد ، منكرين كل الديانات الوثنية القائمة فيها ، وهى دين الآباء والأجداد .

وجاء الدين المسيحى بمبادىء جديدة سامية ، لم ترق فى أعين الأشراف لذلك اتخذت حكومة روما أقسى الوسائل ، فى تعذيب المسيحيين من حرق واعدام وتنكيل ، وظهر ذلك بأبشع صورة فى عهد الامبراطور « نيرون » كما بلغ هذا الاضطهاد أقصى حدوده ، وخاصة بمصر فى عهد الامبراطور « دقلد يانوس » .

حدث فى عهد نيرون عام ٦٤ ق٠م ، أن شبت النيران فى روما فأحرقت جزءا كبيرا منها ، واتهم المسيحيون بذلك فقام الناس يعذبون أنصار المسيحية بأفظع الطرق • أما الامبراطور دقلد يانوس ، فقد أصدر أمرا بهدم كنائس المسيحيين ، وقبض على آلاف منهم ، واودعهم السجن ، وقتل نحو ١٤٤ الفا أكثرهم من المصريين •

٣ — انتصار المسيحية : لم يضعف المسيحيون ، ولم يرتدوا عن دينهم رغم ما لاقوه من تعذيب ، وتقتيل وسرعان ما جاءهم النصر ، على يد الامبراطور قسطنطين ، فأوقف الاضطهاد ، وجعل المسيحية الدين الرسمى ثم أصدر احد الأباطرة مرسوما عام ٣٨٠ م حتم اعتناق المسيحية ، وحرم عبادة الأوثان ، وأغلق معابدها « فانتشر الدين المسيحى بالتدريج فى انحاء الامبراطورية • وتأسست كنائس فى روما والاسكندرية وغيرهما من مدن الامبراطورية • وسار للكنيسة المسيحية أنظمة وموظفون ،كان من أعظمهم شأنا « بطريق روما » الذى أطلق عليه فيمابعد لقب « بابا »

٤ — المسيحية فى مصر : دخلت المسيحية مصر فى العصر الرومانى ، فاعتنقها اليهود فى الأسكندرية وانتشرت بين الاغريق ثم بين المصريين• ولما قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية ، وبلغ الاضطهاد أقصاه زمن الامبراطور دقلد يانوس ، أصاب مسيحى مصر منه ، صنوف العذاب لأنهم أبوا ان يقدسوه • وكان كلما ازداد فى تعذيبهم ، ازدادوا تمسكا بدينهم ، فأسرف فى ذبحهم ، وجعلوا اول حكمه « ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ م » مبدأ السنة القبطية ، يحسبون منه السنين والأيام من هذا التاريخ الى يومنا هذا •

وظل أقباط مصر فى عذاب واضطهاد حتى تولى الامبراطور قسطنطين وجعل المسيحية ، دين الدولة الرسمى ، كما تقدم •

٥ ـ دخول المسيحية فى السودان :

عرفنا فيما سبق أن دولة مروى قد سقطت في القرن الرابع الميلادي حوالى سنة ٣٥٠ م . وكان من نتيجة هذا أن رجعت بلاد السودان الى حالة فوضى واضطراب ، حيث انقسمت الى ممالك صغيرة متنافرة . ونظرا لأن الكتابة الهيروغليفية المصرية قد ضاعت على أيام مروى الأخيرة، لم يصل الينا من أخبار هذه الفترة الا النزر اليسير ،

وكل مايمكن أن نعرفه هو أن أباطرة القسطنطينية استمروا يفهمون أن البلاد النوبة ما زالت جزءا من امبراطوريتهم ،وأنهم مسئولون عنها ، وذلك تتيجة لما كان قد قام بين الرومان فى مصر ، وبين رؤساء النوبة من اتفاقية ـ عرضنا لها فيما سبق ـ وللحملات الانتقامية التى وجهها بترونيوس حاكم مصر الرومانى على النوبة وتدميره لنبتة ، استمر أباطرة القسطنطينية ورجالها على هذا الفهم ، فذكروا بلاد النوبة ولم ينسوا أن يعملوا على نشر المسيحية فيها ، لما أتت الفرصة على عهد الامبراطور جستنيا ووزجته ثيودورا ، التى كانت قد تحمست لنشر المسيحية .

أما عن دخول المسيحية بلاد السودان ، فاننا قد عرفنا أن الامبراطور قسطنطين قد جعل المسيحية الدين الرسمى للدولة ، وتتيجة لذلك تقدمت هذه الديانة فى مصر تقدما كبيرا ، حتى أصبحت الغالبية العظمى حوالى أواسط القرن الخامس تدين بالدين المسيحى . وتبع ذلك زوال الديانة المصرية القديمة وكما وفدت على السودان وثنية مصر ، فقد وفد عليه كذلك الدين الجديد عن طريقها ، فالمسيحية لم تدخل السودان عن طريق الحبشة ، وانما عن طريق مصر ، فقد أخذت النوبة تتأثر بالدين الجديد . فالمسيحيون الذين كانوا يفرون من الاضطهاد ، الذى كانوا

يلاقونه فى مصر ، كانوا يلجأون لبلاد النوبة ، وهنا تهيأ لهم نشر آرائهم . كما كان التجار الذين كانوا يعملون بين النوبةومصر ، كانوا ينقلون معهم بعض آراء المسيحيين . وهكذا دخلت بذور المسيحية بلاد النوبة ، ولكن العمل المنظم لنشر المسيحية فى بلاد السودان ، والذى له الأثر الباقى ، لم يكن من نصيب المضطهدين ، ولا التجار ولكنه كان من عمل المبشرين النظاميين ، ممن كانوا يعملون فى مصر ودخلوا النوبة عن طريق مصر ، وهاك قصة هؤلاء المبشرين الذين نشروا المسيحية فى بلاد السودان .

رسل ثيودورا وجستنيان :

لما سقطت الامبراطورية الغربية على يد المتبربرين عام ٤٧٦م ، أصبحت الدولة الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) صاحبة الشأن فى بلاد الشرق التابعة للامبراطورية الرومانية ، وكانت الديانة المسيحية قد انتشرت فى هذه البلاد ، واستولت على مشاعر السكان وعقولهم ، وقوى الشعور الدينى الى حد كبير ، لما كثرت غارات المتبربرين ، واضطربت سياسة الامبراطورية الرومانية ، حتى أصبح شغل لناس الشاغل تفضيل هذا المذهب الدينى على غيره ، فكنت بدلا من أن ترى الاحزاب السياسية تتضارب وتتراشق ، يأخذك تنافس الأحزاب الدينية ، الذى كان كثيرا ما يؤدى الى التصادم والعراك فى شوارع المدن ومدينة القسطنطينية بالذات
وفى القرن السادس الميلادى عندما كان التعصب الدينى قد وصل موجة عالية ، تربع على عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) ، الامبراطور العظيم جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) ، وكان لجستنيان هذا زوجة تدعى ثيودورا ، لحقها ما لحق الناس ، فانقلبت من حياة لهو وعبث الى امرأة متدينة متحمسة للدين تشجع الارساليات المسيحية

التى تقوم بنشر الدين المسيحى ، وتعمل على اعلاء كلمة الدين • ولو احدة من هذه الارساليات ، التى بعثت بها ثيودورا لنشر المسيحية ، يرجع الفضل الى دخول بلاد السودان فى المسيحية •

ذكرنا سابقا أن الرأى الذى كان سائدا فى لدوائر الرومانية ، ان بلاد السودان جزء من الامبرطورية الرومانية • وقد ساق هذا الاعتقاد القس جوليان الى التفكير فى أمر ادخال أهل تلك البلاد فى الدين المسيحى ، فبث رغبته الى الامبراطورة ثيودورا ، التى نقلت حديث القس الى الامبرطور جستنيان • ولما علم جستنيان بالأمر سارع الى أصدار أمره الى مندوبى مذهبه فى مصر بارسال بعثة تبشيرية الى بلاد النوبة • وحيث أن ثيودورا كانت تدين بمذهب زوجها ، فسارعت هى بدورها الى ايفاد جوليان بنشر المسيحية على مذهبها ، وقد أفلح جوليان فى دخول النوبة قبل بعثة جستنيان ، فحاز بذلك السبق فى مهمته •

وفى حوالى سنة ٥٤٠ م وصل القس جوليان الى أثيوبيا مبعوث الامبراطورة ثيودورا لنشر المسيحية فى بلاد النوبة «أثيوبيا »، وقد بقى هذا القس فى تلك البلاد حوالى سنتين ، استطاع فيهما أن يعمل على نشر المسيحية بين الأهالى • وبعد ذلك عاد الى بلاده ، بعدما خلف وراءه من ينوب عنه فى العمل على تثبيت ما أمكنه عمله •

ظلت بلاد النوبة الى سنة ٥٦٩ بلا أسقف ، أى حوالى ثمانية وعشرين سنة ، ثم وفد عليها الأسقف لونجينس ، وبنى كنيسة فى هذه البلاد ، واستمر يواصل اعمال من سبقوه لمدة خمس سنوات ، حتى دخلت كل مملكة النوبة فى الدين المسيحى •

أما مملكة المغرة فيظن ان القسس الذين بعث بهم جستنيان قد اتخذوها

منطقة لتبشيرهم ، اذ تم دخول أهلها المسيحية على نفس العهد الذى دبلت فيه مملكة النوبة المسيحية .

وبقيت مملكة علوة على وثنيتها حتى عاد الاسقف لونجينس عام ٥٨٠م الى بلاد النوبة ، ومنها سار جنوبا بدعوة من ملوك علوة ، فدخل مملكتهم ، وعمل فيها على نشر الدين المسيحى (شكل ١٤) : وعلى عهد لونجينس هذا حولت كثير من المعابد الوثنية فى مملكتى النوبة وعلوة الى كنائس ، بنيت معاقل جديدة من كنائس وأديرة للدين المسيحى فى العصور التالية (شكل ١٤) وآثار العهد المسيحى منتشرة فى كل الممالك المسيحية الثلاث (النوبة والمقرة وعلوة) ، وخاصة فى مركز حلفا ومروى ودنقلا ، فالى الشمال من حلفا نجد كنيستين قبطيتين فى مرة وفرس ، كما كانت تقوم كنائس فى أدندان وأرقين ودبيرة . والى الجنوب من حلفا نجد بقايا الكنائس فى بوهين وجزيرة ساى وصادنقا .

وفى مركز مروى ــ دنقلا ، نجد ان الأثر المسيحى الرئيسى هو الجامع القديم فى دنقلة العجوز ، الذى حول من كنيسة الى مسجد فى العهد الاسلامى الأول وكذلك نجد فى هذا المركز بقايا مبانى الدير الصحراوى فى وادى الغزالة فى الصحراء فى منطقة مروى الحالية ، أما مابقى من آثار مملكة علوة المسيحية فقليل ، بالنسبة لأن الأمطار قد أزالت معظم آثار هذه المملكة ، ولم تبق الا آثار مسيحية بسيطة فى سوبا وفى القطينة وبرى والكاملين وسنار ، وود الحداد (شكل ١٤) .

واستمرت المسيحية تنتشر هكذا حتى اذا وصلنا الى نهاية القرن السادس الميلادى ألفينا الدين المسيحى يربط بين سكان الممالك الثلاث وبقى البجة فى جملتهم على ما كانوا عليه من الوثنية .

وفى البلاد التى تمسحت (دخلت فى الدين المسيحى) ، استطاع رجال

الكنيسة أن يجعلوا من اللغة النوبية لغة كتابية بالحروف الاغريقية واستعملوها فى أعمالهم الرسمية ، كما ترجموا بعض أجزاء الكتاب المقدس الى اللغة النوبية . وكذلك استعملت اللغتان الاغريقية والقبطية فى المراسيم الدينية ، ودخلت الكتب القبطية بلاد النوبة على ايدى القسس القبط والرهبان . أصبح دين بلاد أثيوبيا ، وما وراءها من بلاد السودان الدين المسيحى متصلا روحيا بالاسكندرية مقر عاهل المسيحية فى مصر والحبشة ، التى كانت قد تنصرت قبل بلاد السودان .

قيام مملكتى النوبة المسيحيتين (١) :

وبمرور الزمن أخذت المسيحية تتقدم فى بلاد السودان نحو الجنوب حتى وصلت اقليم الجزيرة . وكان الدين الجديد عاملا مهما من عوامل التوحيد ، فقد ألف بين قبائل بلاد السودان المتحاربة . ونتيجة لهذا قامت على أنقاض اضطرابات العهد الذى سبق دخول المسيحية فى بلاد السودان دولتان مسيحيتان هما : مملكة النوبة الشمالية او السفلى أو مملكة المقرة وعاصمتها دنقلة العجوز ، ومملكة النوبة العليا أو الجنوبية أو مملكة علوة وعاصمتها سوبا ومن المؤسف حقا ان معلوماتنا عن هاتين الدولتين ضئيلة لحد كبير وذلك لعدة أسباب منها :

(١) أن الدولتين قامتا وظلتا قائمتين فى الزمن الذى كانت فيه أوروبا قد دخلت فيما يسمى بالقرون المظلمة من تاريخها . فلم يعد الارتباط الذى كان قائما بين أوربا وبلاد النوبة ممكنا ، وانقطعت عنا حتى مثل الاخبار التى كان يدونها مؤرخو وجغرافيو الاغريق والرومان . ولم يصلنا من أخبار

---

(١) مندور المهدى : مذكرات ص ٣٢ .

الشلال الأول
فيلة
كلابشة
بوهين
حلفا
سمنة
دنقلا العجوز
مروى
مروى
كبوشية
سوبا
علوة

مراكز الآثار
اهرامات
معابد
كنائس
مدن

ممالك النوبة المسيحية

الدولة البيزنطية الا اليسير عن قصة دخول المسيحية فى السودان « شكل ١٤ »

(٢) والسبب الثانى هو ان العرب قد استولوا على مصر فى بداية القرن السابع ثم أخذوا يتقدمون جنوبا • وابان دخول العرب مصر وتقدمهم جنوبا ، لم يكن يفهم أمر غير الفتح ، فلم يتعرضوا للكتابة عن أحوال النوبة حتى القرن العاشر • ولما تمكن العرب من التغلب على بلاد النوبة المسيحية ودخولها ، خربوا كنائسها ومعالمها ، فانمحت بذلك كثير من آثار مملكة المغرة المسيحية • وبعد تخريب دنقلا ، لقيت سوبا حتفها على يد جيوش الفنج والقواسمة • وكان تخريب سوبا مضرب المثل ، فلحقت آثارها المسيحية بآثار دنقلا •

وهكذا أصبحنا نجهل الكثير جدا عن هذه الحقبة من تاريخ السودان • والقدر اليسير الذى وصلنا اليه من المعلومات مردة الى المؤرخين المسلمين أمثال المسعودى وابن سليم وابن صالح الأرمنى ، الذين كانوا يؤرخون لفترة دخول العرب فى السودان • وهى لهذا تصور فى غير دقة لفترة من العهد المسيحى ، وكذلك عرفنا قليلا عن الدولتين من الآثار البسيطة التى بقيت لنا بعد التخريب ، وبعد ان لعبت الرياح والأمطار دورها فى تشويه هذه الاثار •

ومن المعلومات الضئيلة التى وصلتنا عرفنا أن المملكتين المسيحيتين ظلتا قائمتين فى بلاد السودان حتى سقطت دنقلا العجوز فى يد العرب رسميا عام ١٣١٧ م ، وسقطت سوبة عاصمة مملكة علوة فى يد الفنج عام ١٥٠٤ م •

وقبل أن نختم هذا الفصل ، نورد بعض الأخبار القصيرة التى وردت فى

كتب المؤرخين المسلمين ، والتى تصور لنا بعض النواحى الاجتماعية فى السودان ، وما عرفناه عن هذه البلاد عن طريق الآثار فيقول المسعودي: « أما النوبة فافترقت فرقتين : فرقة فى شرق النيـل وغربه ، وأناخت على شاطيئه ، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد فى بلاد أسوان وغيرها .

« واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ، ولحقوا بقريب من أعاليه . وبنوا دار مملكة عظيمة تدعى دنقلة . والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة ، وبنوا مدينة عظيمة سموها سوبا » .

ويصف أبو صالح الأرمنى عاصمة المغرة ـــ دنقلة العجوز ـــ فى القرن الثالث عشر فيقول : « وهنا مقر الملك ، المدينة كبيرة ، وتقع على النيل المبارك ، وفيها كثير من الكنائس والبيوت الكبيرة ، وشوارعها واسعة ، وبيت الملك يزينه عدد من القباب التى شيدت من الطوب الاحمر ، وتشبه منازل الملك ، بيوت العراق » .

ويصف أبو صالح سوبا عاصمة علوة فى نفس القرن فيقول : « تقع سوبا بمملكة علوة الى شرق الجزيرة الكبيرة ، الممتدة بين النيلين الأخضر والأبيض ، وبها مبان جميلة . وتزين المدينة الحدائق الغناء . وحاكم علوة أثرى من حاكم المغرة لأن بلاده أوسع وأكثر خصبا وأعظم ريعا . والجياد الكريمة كثيرة فى سوبا ، والكتب المتداولة بالاغريقية »

أما اذا رجعنا الى الآثار ، فاننا لانجد ما يضيف الى هذه المعلومات البسيطة شيئا يذكر . اذ أن معظم اثار الدولتين قد عفى عليها الدهر .وما بقى من الآثار لاتصل منه الى أكثر من ان النوبة ، عندما دخلت فى الدين المسيحى حولت كثير من المعابد والهياكل الوثنية التى تنتمى الى العهود

السابقة الى كنائس . فطلوا النقوش الهيروغليفية ، والصور القديمة الوثنية بالطين ، وصوروا على الطلاء صور المسيح ، وبعض القديسين ، وكذلك شيدوا كنائس جديدة فى أماكن أخرى . ومازالت آثار بعض هذه الكنائس قائمة فى بعض جهات السودان على ما سبق أن ذكرنا .

وبدخول المسيحية والكتب المقدسة شاع استعمال اللغة الاغريقية ، والكتابة الاغريقية ، فى أغراض الدين المختلفة ، كما شاعت لغة الاقباط المصريين فى الكنائس كذلك وعظم الاتصال بين النوبة والاسكندرية ، اذ كان مطارنة النوبة يفدونها من الاسكندرية ، من قبل بطريرك الأقباط كما هو الحال بالنسبة لمطارنة الحبشة .

وكانت مملكة المغرة على وجه الخصوص أكثر اتصال بالامبراطورية البيزنطية ، عن طريق مصر ، ولذلك أثرت عليها . فكانت لغة الدين الاغريقية كما ذكرنا وكانت الكنائس تبنى على النمط البيزنطى ، وتزين حيطانها بالتماثيل والصور على غرار كنائس القسطنطينية .

يستفاد من الآثار أن أول ملك مسيحى على دنقلة العجوز كان يدعى سلكو ، وأنه حارب البجه الوثنيين ، الذين كانوا يغيرون على ملكه . وانتصر عليهم وسجل هذا الانتصار بقوله : « انا سلكو ملك النوبيين والأثيوبيين ، حاربت البلاد من (البجه)، ونصرنى الله ، ففتحت بلادهم ولما تذللوا الى أعطيتهم الأمان ، ورجعت لأجزاء مملكتى العليا على ملكى لا أتبع الملوك الآخرين ، ولكن أتقدمهم ، أنا أسد السهول ، ووعل الجبال .

ولا شك فى أن غارات البجه والقبائل الأخرى ، التى كانت تسكن الى غربى النوبة المسيحية ، قد أضعفت النوبة المسيحية كثيرا .

وعلى الرغم من أن المسيحية قد دخلت السـودان حتى أعالى جزيرة سنار ، ودخلت الكتب المقدسة ، وشاع استعمال اللغة الاغريقية والكتابة الاغريقية فى أغراض الدين المختلفة ، كما شاعت لغة الأقباط فى الكنائس على الرغم من هذا كله ، فقد بقيت الديانة المسيحية دين الطبقة الحاكمة، وسكان الحضر وحدهم . ولم تتغلغل فى السودان ، ولم يعتنقها أهـل البادية وكان قسسها ولغتها وكتبها تصل من الخارج . ولذلك لم يجد أهل السودان المسيحيون ، من يرشدهم الى امور دينهم . لما أن سقطت مصر فى قبضة المسلمين ، وانقطعت الصلة بينهم وبين مصر . ولما سقطت دنقلة العجوز فى يد العرب نهائيا واعتنق ملوك المغرة الدين الاسلامى ، كان ذلك نهاية الدين المسيحى رسميا فى السودان .وبمرور الزمن مالبث أن تلاشى هذا الدين واختفى حتى بين السكان الذين كانوا قد اعتنقوه من قبل .

محتويات الكتاب

الموضوع | صفحة

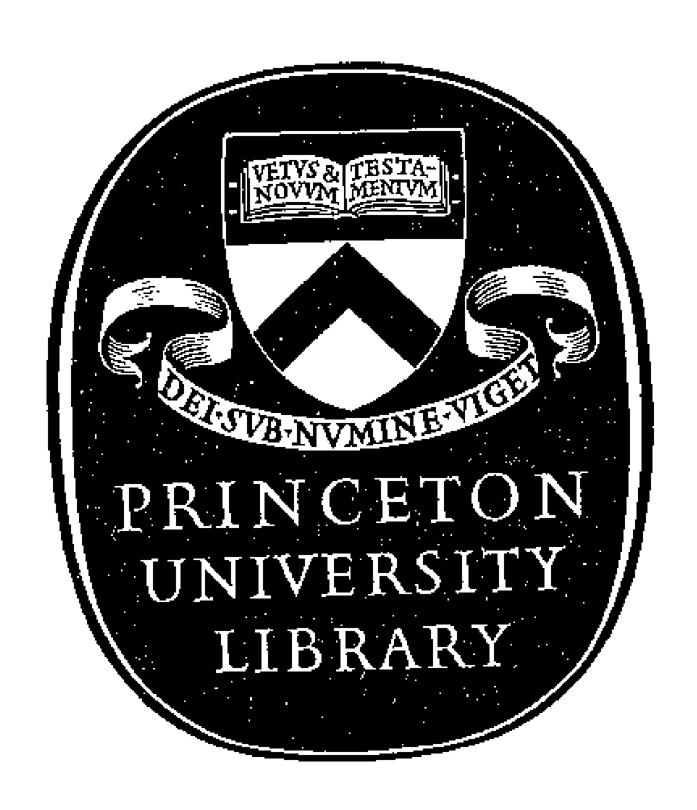
الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الخرائط واللوحــات

الأشــكال — صفحة




VETVS & TESTA-
NOVVM MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


Princeton University Library
32101 106113341